

النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق

في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة

تأليف

الدكتور محمد جمال الدين سرور

كلية الآداب — جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق

في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة

تأليف

الدكتور محمد جمال الدين سرور

كلية الآداب — جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين.

وبعد ، فهذا كتاب يتناول سياسة التوسع للدولة الفاطمية ، يتضح لنا منها اهتمام الفاطميين بالقضاء على العباسيين وبخاصة فى بلاد الشام والعراق ؛ فقد حرصوا منذ بداية القرن الرابع الهجرى على تقلد زعامة العالم الاسلامى ، ومن ثم وجهوا عنايتهم إلى توسيع نطاق دعوتهم وبسط سيطرتهم على أراضى الدولة العباسية.

بدأ الفاطميون فى تنفيذ سياستهم التى تنطوى على تقويض دعائم الخلافة العباسية منذ أن وطدوا سلطتهم فى مصر . وكانت الضرورة السياسية والحربية تقضى عليهم بأن يولوا وجوههم شطر بلاد الشام ، لكنهم رغم نجاحهم فى مد سلطانهم على هذه البلاد واجهوا عدة صعوبات كان لها أثر بالغ فى عدم استقرار الحكم الفاطمى فيها ؛ فضلا عن استياء أهالى دمشق من سياسة الفاطميين القائمة على التعصب للمذهب الشيعى قام قرامطة بلاد البحرين بدور هام فى مناهضة نفوذهم فى بلاد الشام ، كما أن الحركات الاستقلالية التى تزعمها أمراء العرب فى هذه البلاد أدت إلى إضعاف سلطة الفاطميين .

وكان لتضائل سلطان الفاطميين السياسى فى شمال الشام وجنوبه ،

أثر كبير في إتاحة الفرصة أمام السلاجقة للظهور على مسرح السياسة في هذه البلاد ، فبذلوا جهدهم لبسط سيادتهم عليها ، غير أن الفاطميين سرعان ما تأهبوا لصد غاراتهم وأصبحوا هم والسلاجقة في أواخر القرن الخامس الهجري يتقاسمون النفوذ في بلاد الشام .

ولما كانت بلاد العراق موطن الخلافة العباسية ، لذلك عمد الفاطميون إلى إرسال دعاتهم إليها لنشر دعوتهم ، وبلغ من نفوذ هؤلاء الدعاة أن نجحوا في جذب كثيرين من أهالي العراق إلى اعتناق المذهب الاسماعيلي ، كما لقيت الدعوة الفاطمية في فارس تأييدا كبيرا حتى أصبح بين صفوف جند بني بويه من الديلم والأتراك عدد غير قليل يميل إلى الفاطميين . وكان ذلك مما مهد السبيل لإقامة الدعوة الفاطمية على منابر بغداد في منتصف القرن الخامس الهجري . غير أن هذه الدعوة لم يكتب لها البقاء فترة طويلة ، فسرعان ما دخل السلاجقة بغداد وأعادوا الخطبة للخليفة العباسي .

وكان السلاجقة يدركون الخطر الذي يتهددهم من وراء انتشار النفوذ الفاطمي في بلاد الشرق الاسلامي . ومن ثم وجهوا سياستهم بعد أن قبضوا على زمام الأمور في بغداد إلى مناهضة هذا النفوذ ، كما اضطهدوا الشيعيين ، ووقفوا من دعاة الاسماعيلية الذين استفحل خطرهم في بلاد الدولة العباسية موقفا ينطوي على الحزم والشدة . وكان لهذه السياسة أثرها في وقف تيار الدعوة الفاطمية

ففضلا عن انقسام الاسماعيلية إلى فرق وأحزاب فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، شغلت الحكومة الفاطمية بالقضاء على القلاقل التى أثارها أتباع النزارية بإيعاز من رؤساء دعوتهم فى فارس ، كما انصرف فريق من وزراء العصر الفاطمى الأخير عن تأييد المذهب الاسماعيلى ، بل هيأ بعضهم السبيل لرجوع المذهب السنى إلى مصر ؛ فكان ذلك مما مهد الطريق لسقوط الفاطميين ، وظلت الخلافة العباسية مع ما أصابها من وهن وضعف موضع احترام العالم الاسلامى .

* * *

وقد عنيت فى هذا الكتاب ببحث سياسة الفاطميين فى بسط سيادتهم على بلاد الشام ، كما وضحت العوامل التى أدت إلى عدم استقرار الحكم الفاطمى فى هذه البلاد والمجهودات التى بذلها الفاطميون للاحتفاظ بسيادتهم عليها .

ومن المسائل التى وجهت إليها اهتمامى ازدياد نفوذ السلاجقة ومحاولتهم إقصاء الفاطميين عن بلاد الشام . وقد بينت ما كان للتنافس بينهم من أثر فى عدم استقرار الأمور فى هذه البلاد ، وضعف الجبهة الاسلامية أمام الغزو الصليبى .

كذلك تناولت بالبحث سياسة الفاطميين فى نشر دعوتهم بمدن العراق ، فكشفت النقاب عن العوامل التى حملت الفاطميين على إرسال دعاتهم إلى بلاد الشرق الاسلامى والوسائل التى اتبعوها لا
لإعلاء [illegible] الدعوة الفاطمية

ولما كانت حركة البساسيرى فى العراق تعد من ثمار الدعوة الفاطمية فى هذه البلاد ، فضلا عن أنها من مظاهر نجاح سياسة الفاطميين الخارجية ، لذلك اهتممت بتوضيح الظروف التى هيأت السبيل لظهور البساسيرى والقيام بحركته ، والعوامل التى حملته على الانحياز إلى الفاطميين وموقف الخلافة الفاطمية منه .

وكان زوال النفوذ الفاطمى ببلاد العراق من المسائل التى تعرضت لبحثها ، فوضحت الجهود التى بذلها السلاجقة للقضاء على حركة البساسيرى واستئصال شأفة دعاة الاسماعيلية ، كما بينت العوامل التى ساعدت على انحلال الدعوة الفاطمية فى أواخر القرن الخامس الهجرى .

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنى لمتابعة البحث فى تاريخ الدول الاسلامية ؟

محمد جمال الدين سرور

القاهرة فى { ١ رمضان سنة ١٣٧٦ هـ
١ ابريل سنة ١٩٥٧ م

محتويات الكتاب

الباب الأول

النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام

الباب الثانى

الدعوة الفاطمية فى بلاد العراق

صفحة

الباب الأول

النفوذ الفاطمي في بلاد الشام

---

١ — السيادة الفاطمية فى بلاد الشام

٢ — الصعوبات التى واجهت الفاطميين فى بلاد الشام .

٣ — ضعف النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام فى أواخر القرن الخامس الهجرى .

الباب الأول

النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام

١ – السيادة الفاطمية فى بلاد الشام

(ا) **بلاد الشام قبيل الفتح الفاطمى** : حرص الاخشيديون أثناء ولايتهم على مصر على توطيد نفوذهم بولاية الشام التى تقلدوا حكمها ؛ فلما علم محمد بن طغج الاخشيد أن الخليفة العباسى الراضى قلد محمد بن رائق الخزرى هذه الولاية ، كتب إلى نائبه ببغداد يطلب إليه أن يخبر الخليفة بمطامع ابن رائق فى الشام ويستطلع رأيه فى هذا الأمر . غير أن الخليفة العباسى لم يكن إذ ذاك لديه من النفوذ بحيث يستطيع أن يتخذ قرارا يلزم أحد الفريقين باتباعه . لذلك استقر رأى الاخشيد على إعداد العدة لمحاربة محمد بن رائق[1] ، فخرج على رأس جيشه فى أوائل سنة ٣٢٨ هـ ، ودارت بينه وبين ابن رائق معركة فى العريش ، فمضى ابن رائق منهزماً إلى الرملة . ثم عقد الصلح بين الفريقين على أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية شمالى الرملة وعلى أن يدفع الاخشيد إليه جزية سنوية قدرها مائة وأربعون ألف دينار[2] . ومن المحتمل أن الاخشيد اضطر إلى قبول الصلح

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٩

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج ١ ص ٣٢٩

على هذه الصورة رغم ما أحرزه من نصر خشية أن تواصل الخلافة العباسية الحملات عليه ورغبة فى إعداد نفسه لدرء الخطر الفاطمى الذى كان يهدده من ناحية حدود مصر الغربية[١].

استطاع الإخشيد أن يعيد بلاد الشام إلى حوزته من غير حرب بعد وفاة ابن رائق ، وبذلك استقر حكمه فى هذه البلاد وأصبح من القوة بحيث استطاع أن يحصل على تقليد فى بداية سنة ٣٣٣ هـ من الخليفة المتقى بولاية مصر وحق توريث إمارتها لأبنائه من بعده ، كما أخذ تقليدا من الخليفة المستكفى فى جمادى الآخرة من هذه السنة ، أقره فيه على ولاية مصر والشام[٢].

لم يحتفظ الإخشيد فترة طويلة بسلطانه على جميع بلاد الشام ويرجع السبب فى ذلك إلى تطلع الحمدانيين[٣] إلى انتزاع هذه البلاد

---

(١) حسن ابراهيم : كتاب الاسلام السياسى ، جـ ٣ ص ٦٨

(٢) الكندى : الولاة والقضاء ، ص ٢٩٢ ، سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ٨٦

(٣) ينتسب الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب وموطنها ديار ربيعة فى الجزيرة بالقرب من سنجار ونصيبين . وكان لحمدان ستة أولادهم : ابراهيم والحسين ونصر أبو السرايا وأبو الهيجاء عبد الله ، وأبو العلاء سعيد ، وداود ، وقد ظهر نفوذ الحمدانيين فى الموصل منذ أن تقلد ولايتها عبد الله بن حمدان من قبل الخليفة المكتفى سنة ٢٩٣ هـ (ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ١٧٥) ولما ولى المقتدر الخلافة أقره والياً عليها ، فظل يلى أمورها حتى سنة ٣١٧ هـ حيث اشترك فى المؤامرة التى دبرت لخلع المقتدر ، فكان مصيره القتل (أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ص ٢٢٣)

على أن الخليفة المقتدر رغم ذلك حرص على الاستعانة بالحمدانيين وعلى الأخص =

من أيدى الإخشيديين ؛ فلما أسندت ولاية حلب إلى أبى الفتح عثمان بن سعيد الكلابى حقد عليه أهل بيته من الكلابيين وراسلوا سيف الدولة بن حمدان ليسلموا إليه حلب . وكان سيف الدولة قد طلب من أخيه ناصر الدولة أن يوليه إحدى الولايات ، فقال له ناصر الدولة : الشام أمامك وما فيه أحد يمنعك منه . فلما وقف سيف الدولة على الخلاف القائم بين الكلابيين وأيقن من عجز أبى الفتح والى حلب عن مقاومته ، سار فى جيشه الصغير قاصدا حلب ، فقابله إخوة أبى الفتح الكلابى عند نهر الفرات وأعلنوا ولاءهم له ، كما أن أبا الفتح نفسه ما لبث أن لقى سيف الدولة ودخل فى طاعته[1] . وبذلك تيسر لسيف الدولة الاستيلاء على حلب وأصبح أميراً عليها منذ سنة ٣٣٣ هـ ، وبدأ عمله بإقامة الخطبة للخليفة العباسى المكتفى ولأخيه ناصر الدولة ولنفسه .

= فى إقليم الجزيرة لاعتقاده أنهم يستطيعون إخماد حركات القبائل المتنافرة بهذا الاقليم ، فأسند إلى الحسن بن عبدالله بن حمدان ولاية الموصل . وقد استطاع هذا الأمير أن يحتفظ بنفوذه فى الموصل منذ سنة ٣١٧ هـ كما تمكن من بسط سلطانه على جميع أرجاء ديار بكر وديار ربيعة (ابن الأثير . الكامل فى التاريخ ؛ جـ ٨ ص ٦٧، ٦٨)

ولما استولى البريديون على بغداد ونهبوا دار الخلافة اضطر الخليفة المتقى إلى الهرب منها وسار مع فريق من جيشه إلى الموصل ، فقضى بها ما يقرب من أربعة أشهر ، ثم عاد إلى بغداد فى شوال سنة ٣٣٠ هـ ، وعلا منذ ذلك الوقت شأن بنى حمدان ، فخلع المتقى على الحسن بن عبد الله ولقبه ناصر الدولة كما خلع على أخيه على بن عبد الله ولقبه سيف الدولة (مسكويه : تجارب الأمم ، جـ ٢ ، ص ٢٨)

(١) ابن العديم الحلبى : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، ص ٣٦٥ — ٣٦٧)

لما وصل إلى محمد بن طغج الإخشيد نبأ دخول سيف الدولة حلب وإقامته الخطبة للخليفة العباسى ، كتب إلى الخليفة بذلك ، فأرسل إليه وإلى ابنه أونوجور خلعا دليلا على تأييده له ، على أن سيف الدولة ما لبث أن كشف عن نواياه بعد أن استقرت له الأمور فى حلب ، فسار إلى حمص يريد دمشق . ولما بلغ الإخشيد أن سيف الدولة عزم على بسط سلطانه على دمشق ، أرسل إلى الشام جيشاً التقى بسيف الدولة عند بلدة الرستن[1] . فكان النصر حليف الحمدانيين ، وتقهقر الجيش الإخشيدى إلى دمشق ، ثم خرج منها قاصدا الرملة فى طريق عودته إلى مصر ، وسار سيف الدولة فى أثر الجند المصريين يريد دمشق ، وكتب إلى أهلها كتابا ، قرىء على منبر المسجد الأموى[2] . وقد تضمن هذا الكتاب حرصه على صيانة أرواحهم والمحافظة على أموالهم .

استقر رأى محمد بن طغج الاخشيد بعد أن وصلته نسخة من كتاب سيف الدولة على أن يسير بنفسه لمحاربته . فاستخلف على مصر ابنه أونوجور وسار على رأس جيش كبير إلى دمشق ، والتقى الفريقان فى قِنسرين . وكان النصر فى البداية حليف سيف الدولة ، غير أن هذا النصر ما لبث أن انقلب إلى هزيمة ، فدخل الاخشيد حلب حاضرة الحمدانيين واسترد دمشق .

(١) تقع على نهر العاصى الذى يمر بالقرب من حماه

(٢) ابن سعيد : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٤١ — ٤٢ ، سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ٣٥٠

وعلى الرغم من انتصار الإخشيد . فإنه رأى أن يصالح الحمدانيين ، وتم الصلح بين الأميرين في ربيع الأول سنة ٣٣٤ هـ . على أن يكون لسيف الدولة وما يليها من بلاد الشام شمالا . وأن يكون للاخشيد دمشق وأعمالها ، كما تضمن الصلح أن يدفع الإخشيد لسيف الدولة جزية سنوية[١]

ومن المرجح أن الاخشيد سعى إلى عقد الصلح مع سيف الدولة لأنه كان يعتقد أن انتصاره عليه لم يكن حاسما وأن الحرب بينهما ستظل قائمة إلى أن يتم النصر لسيف الدولة ، كما أنه كان على يقين من أن النزاع بينه وبين الحمدانيين على الشام سينتهى بانتصارهم عليه لأن هذا الاقليم بعد المجال الحيوى لاتساع سلطانهم . وفضلا عن ذلك فإن الاخشيد كان يرمى من إبرام الصلح مع سيف الدولة على هذه الصورة أن يُبقى الدولة الحمدانية حصناً منيعاً بينه وبين البيزنطيين يكفيه مؤونة التعرض لهجومهم من وقت لآخر[٢] .

لما خلت دمشق من حامية قوية ترد غارة الحمدانيين على أثر وفاة محمد بن طغج الإخشيد وعودة جنده من الشام إلى مصر انتهز هذه الفرصة سيف الدولة الحمدانى واتجه إليها بجيشه ، فسقطت في يده بعد أن استسلم إليه حاكمها الاخشيدى ، ولم يكتف بذلك ، بل عمد إلى مطالبة أهلها بودائع الاخشيد ، فكاتبوا كافورا

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ص ٢٧٨ ، ٢٨٢ – ٢٨٣

(٢) حسن ابراهيم تاريخ الإسلام السياسى . جـ ٣ ص ٢١١

يستدعونه من مصر ، فجاءهم بصحبة سيده أونوجور[1] ، ثم دار القتال بين الفريقين . فكان النصر حليف المصريين وتقهقر سيف الدولة إلى دمشق فحمص حيث أعاد تنظيم صفوفه ، وجمع جيشاً كبيراً من الأعراب هاجم به الجنود المصرية شمالى دمشق ، فلحقت به الهزيمة وطارده الاخشيديون إلى حلب ، فهرب إلى الرقة ، ثم بدأت المفاوضات بين الحمدانيين والإخشيديين ، وانتهت إلى عقد معاهدة الصلح بنفس الشروط التى كانت بين الاخشيديين وسيف الدولة[2] ما عدا الجزية ، فإن الاخشيديين لم يقبلوا دفعها[3] . وكان من نتائج هذا الصلح أن ساد الصفاء بين الحمدانيين والاخشيديين[4]

لم يكن الحمدانيون هم الذين حاولوا وحدهم إضعاف نفوذ الاخشيديين فى بلاد الشام ، بل تعرضت هذه البلاد أيضاً لغارات قرامطة بلاد البحرين[5] ، فقامت فى عهد أميرهم أحمد بن أبى سعيد

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ص ١٦٤ ، ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، ص ٣٧١ — ٣٧٢

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٣ ص ٣٩١ — ٣٩٢

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، ص ٣٧٣ — ٣٧٤

(٤) سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ٣٥٤

(٥) أسس أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى دولة القرامطة ببلاد البحرين سنة ٢٧٦ هـ . وقد استطاعت هذه الدولة أن تبسط نفوذها على كثير من أرجاء جزيرة العرب ، كما قامت بها حكومة ملكية وراثية فى بيت أبى سعيد (راجع كتاب النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب للمؤلف ، ص ٢١ — ٣٩) .

(٣٣٢—٣٥٩ هـ) حملتان لغزو بلاد الشام : الأولى فى سنة ٣٥٣ هـ[١] وتعرف بحملة طبرية . وقد تمكنت هذه الحملة بمعاونة الحمدانيين من إحراز النصر على الحسن بن عبيد الله بن طغج الاخشيدى الذى كان يلى هذه البلاد من قبل الاخشيديين[٢] . أما الحملة الثانية ، فأغارت على بلاد الشام سنة ٣٥٧ هـ وعجز الاخشيديون عن صدها ، فسقطت الرملة فى أيدى القرامطة ، واضطر الحسن بن عبيد الله بن طغج الاخشيد إلى الاتفاق معهم على أن يدفع لهم ثلاثمائة ألف دينار كل سنة[٣] ، وبذلك امتد نفوذ دولة القرامطة إلى بلاد الشام فى أواخر عهد الاخشيديين .

(ب) الفتح الفاطمى لبلاد الشام : حرص الفاطميون منذ أقاموا خلافتهم فى بلاد المغرب فى أواخر القرن الثالث الهجرى على تقويض دعائم الخلافة العباسية وانتزاع زعامة الاسلام منها ؛ فأسند المعز لدين الله الفاطمى إلى قائده جوهر الصقلى قيادة الحملة التى أرسلها إلى مصر سنة ٣٥٨ هـ . وقد تكللت مجهودات جوهر الصقلى فى فتح مصر بالنجاح ، فأقيمت الخطبة للخليفة الفاطمى على منابرها بدلا من الخليفة العباسى ، وأصبحت القاهرة بعد أن اتخذها المعز لدين الله حاضرة لخلافته سنة ٣٦٢ هـ مركزا للدعوة الشيعية التى ظل العباسيون يقاومونها زهاء قرنين .

---

(١) المقريزى : خطط ، ج ١ ص ٣٢٩

(٢) حسن ابراهيم ، طه شرف : كتاب المعز لدين الله الفاطمى ، ص ١٠٠

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا ، ص ٢٤٧ — ٢٤٨ ،
De Goeje : Les Carmathes du Bahrein p. 186.

كانت الضرورة السياسية والحربية تقضى على الفاطميين بعد أن تم لهم فتح مصر أن يولوا وجوههم شطر بلاد الشام ، ولم تخف عن جوهر الصقلى تلك الحقيقة ، فعمل على فتح هذه البلاد رغبة فى تأمين حدود مصر من ناحية الشمال الشرقى والوقوف فى وجه الروم والقرامطة .

وقد تضمن كتاب الأمان الذى أعلنه جوهر المصريين (فى شعبان سنة ٣٥٨ هـ) إشارة ظاهرة إلى خطر القرامطة الذين اجتاحوا بلاد الشام وأوقعوا الهزيمة بقوات الاخشيديين سنة ٣٥٧ هـ ، وأخذوا يهددون مصر ؛ فجاء فيه [(١)] : « وهو أنه — صلوات الله عليه — ، لم يكن إخراجه العساكر المنصورة والجيوش المظفرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم » ، كما ورد فى هذا الأمان أيضا : « ولكم على أمان الله التام العام ، الدائم المتصل ، الشامل الكامل ، المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام فى أنفسكم وأموالكم وأهليكم . . . ، وعلى أن لا يعترض عليكم معترض ، ولا يتجنى عليكم متجن . ولا يتعقب عليكم متعقب . وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ويذب عنكم ويمنع منكم ، فلا يتعرض إلى أذاكم ولا يسارع أحد فى الاعتداء عليكم » .

لما تم لجوهر الصقلى فتح مصر وأيقن أن النفوذ الفاطمى قد توطد فيها ، أرسل حملة إلى فلسطين أسند قيادتها إلى جعفر بن فلاح الكتامى فى أواخر سنة ٣٥٩ هـ [(٢)] ، فرأى الاخشيديون فى الشام بعد أن وصلت

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ١٤٨ ، ١٥١ — ١٥٢

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ١٦٨

إليهم أنباء هذه الحملة أن يعدوا أنفسهم لصدها ، فخرج الحسن بن عبيد الله ابن طغج الاخشيد — الذى كان يلى بلاد الشام إذ ذاك — من مدينة دمشق قاصدا الرملة واستخلف شمولا الاخشيدى على دمشق ؛ على أن هذا الوالى لم يكن مخلصا للحسن بن عبيد الله ، فتقاعد عن نصرته .

لما وصل جعفر بن فلاح إلى الرملة ، دعا ولاة الشام إلى طاعة المعز لدين الله الخليفة الفاطمي ببلاد المغرب ، فأجاب دعوته فريق منهم . أما الحسن بن عبيد الله بن طغج الاخشيد ، فإنه استنجد بعماله على دمشق وطبرية ، فلم يسارع أحد منهم إلى نجدته ، وانتهت الحرب التى دارت بين جعفر بن فلاح والحسن بن عبيد الله فى الرملة بهزيمة الحسن وأسره مع كثير من جنده [1] ، ثم سيق إلى الفسطاط حيث أرسل إلى بلاد المغرب ، فظل بها حتى توفى سنة ٣٧١ هـ فى خلافة العزيز بالله .

استأنف جعفر بن فلاح السير إلى طبرية بعد انتصاره فى الرملة فبنى قصرا على الجسر الذى يشرف على المدينة ليحارب فاتك — غلام ملهم — وكان يلى أمورها من قبل كافور الاخشيدى ؛ فخافه كل من فاتك وملهم ولم يتعرضا له . وبذلك تيسر لجعفر دخول طبرية دون أن يلقى مقاومة تذكر من أهلها .

لما وصل إلى أهل دمشق نبأ استيلاء جعفر على طبرية خشوا بأسه ، وأرسلوا إليه جماعة من كبار رجالهم ، يطلبون الأمان لكنه لم يحسن استقبالهم ، فعادوا إلى دمشق ، ودارت رحى الحرب بين جنود

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ١٧١ ، حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ، جـ ٣ ص ٢٥٤

جعفر وأهاهلا هذه المدينة فى أواخر سنة ٣٥٩ هـ . وعلى الرغم من أن أهالى دمشق استطاعوا بمعاونة جند الاخشيديين الوقوف بضعة أيام فى وجه جعفر بن فلاح وجنده من المغاربة والقبائل العربية بالشام التى انضمت إليه ، فإن الهزيمة لحقت بهم واستولى جعفر على دمشق [١] .

لما رأى أهالى دمشق ما حلّ بجندهم من الهزيمة وعجزهم عن الوقوف فى وجه الفاطميين . ندبوا بعض رجالاتهم لمقابلة جعفر ، وطلبوا إليه إصلاح حال مدينتهم وإعادتها إلى ما كانت عليه ، فقبض عليهم بعض جنده من المغاربة وسلبوهم ثيابهم . وكان لهذا العمل أسوأ الأثر فى نفوس أهالى دمشق .

على أن جعفر لم يلبث أن أخمد هذه الفتنة واضطر أهالى دمشق إلى مقابلته لطلب الأمان . وما زالوا يتضرعون إليه حتى قال : ما أعفو عنكم حتى تخرجوا إلىّ ومعكم نساؤكم مكشوفات الشعور ، فيتمرغن فى التراب بين يدىّ لطلب العفو » ، فقالوا له : « نفعل ما يقول القائد » ، وأخذوا يلحون عليه بالرجاء لعله يعفو عنهم ، فهدأت ثائرته وانبسط معهم فى الكلام ؛ واستقر الرأى بينه وبينهم على أن يصلى هو ورجاله يوم الجمعة فى مسجد دمشق ؛ فدخل المسجد هو وأصحابه ، وأقيمت فى هذا اليوم الخطبة للخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، وحذف اسم الخليفة العباسى المطيع . وكان ذلك فى المحرم سنة ٣٦٠ هـ [٢] .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ١٧٣ — ١٧٥

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ١٧٦

لم تكد تستقر الأمور في دمشق حتى عاد جند جعفر إلى العبث بالنظام ، فانتهكوا حرمة بعض المنازل ، وسلبوا ما فيها . وكان ذلك مما [illegible] أهل دمشق على سلطانهم ، فاضطر شيوخ هذه المدينة إلى مقابلته يطلبون منه الأمان من جديد ، فقال لهم : « دخل رجال أمير المؤمنين البلاد فقاتلتموهم » ، ثم هددهم باستعمال العنف ، فأخذوا يهدئون من غضبه حتى وعدهم بالعفو إذا دفعوا دية من قتل من جنوده ، فأجابوه طلبه ، ودفعوا إليه الأموال الكثيرة .

لما رأى جعفر بن فلاح أنه لن يستطيع توطيد سلطان الفاطميين في دمشق إلا بالقضاء على زعماء الفتنة من أهلها ، أرسل جنده في طلبهم ؛ وعندما تمكنوا من القبض عليهم ، أمر جعفر بضرب أعناقهم . وكان من بينهم إسحق بن عصودا ، ولم ينج منهم إلا أبو القاسم بن أبي يعلى العباسي ومحمد بن عصودا . وقد حاول ابن أبي يعلى الهرب إلى بغداد ، فقبض عليه عند تدمر ، وسيق به إلى جعفر بن فلاح حيث شهر به ثم أرسل إلى مصر . أما محمد بن عصودا وظالم بن موهوب العقيلي والي حوران من قبل الإخشيديين فلحقا بالقرامطة في الأحساء [1] .

على الرغم من أن جعفر بن فلاح حالفه النصر في بلاد الشام ، فإن سياسة العنف التي اتبعها في دمشق وإساءة جنده معاملة الأهلين ، واستهتارهم بأرواحهم ، أثارت سخط الناس عليه ، فدبر أهل دمشق المؤامرات لإقصاء هذا القائد والقضاء عليه ، والتخلص من حكم الفاطميين الذين يخالفونهم في المذهب الديني

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ص ١٧٧

لم يؤد استيلاء قوات جعفر بن فلاح على دمشق إلى بسط سلطان الفاطميين على جميع أرجاء بلاد الشام ، فكان هناك الحمدانيون فى حلب — وقد لجأ إليهم كثير من أنصار الاخشيديين — كما أن الروم كانوا يهددون من حين لآخر المدن الشمالية والساحلية ببلاد الشام ، كذلك كان لقرامطة بلاد البحرين بعض النفوذ فى هذه البلاد منذ أغاروا عليها سنة ٣٥٧ هـ .

على أن الحمدانيين لم يكونوا فى ذلك الوقت من القوة بحيث يستطيعون مناوأة الفاطميين والوقوف فى وجههم ، فقد أخذت دولتهم فى الضعف منذ وفاة سيف الدولة سنة ٣٥٦ هـ[1] . أما الروم . فقد تكفل الحمدانيون فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى بصد غاراتهم . ولولا الجهود التى بذلوها فى هذا السبيل لاستولوا على بلاد الشام فى غفلة العباسيين .

ولما اعتلى نقفور فوكاس (Nicephorus Phocas) عرش الدولة البيزنطية (٩٦٣ - ٩٦٩ م) تقدم الروم إلى حدود سوريا الشمالية ، فاستولى جيشه سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) على أنطاكية التى كان يطمح إليها منذ زمن طويل لأنها كانت مدينة البطارقة والقديسين. لذلك اعتبرت منافسة لبيزنطة من الناحية الدينية . وبعد احتلال أنطاكية بمدة وجيزة حاصر قائد نقفور مدينة حلب واضطر قرعويه الذى كان إذ ذاك

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ، ج ٣ ، ص ٢١٣

قد ثار على سعد الدولة بن سيف الدولة الحمدانى إلى عقد صلح بينه مع البيزنطيين[١] سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) .

رأى جعفر بن فلاح بعد أن استقرت له الأمور ببلاد الشام ، أن استيلاء الروم على أنطاكية يهدد الحكم الفاطمى فى هذه البلاد ، ومن ثم أخذ فى تجهيز جيش كبير ضم إليه جنودا من أعمال دمشق وفلسطين ؛ وصار يرسل الحملة بعد الحملة إلى أنطاكية لإجلاء الروم عنها ، لكن هذه الحملات منيت بالفشل[٢] .

كذلك واجه جعفر بن فلاح خطر قرامطة بلاد البحرين الذى يعدُّ من أشد الأخطار التى هددت الحكم الفاطمي فى بلاد الشام . وكان هؤلاء القرامطة يرمون إلى بسط نفوذهم على هذه البلاد . وتجلت أطماعهم فيها فى عهد أميرهم أحمد بن أبى سعيد حيث فرضوا منذ سنة ٣٥٧ هـ على الإخشيديين الذين كانوا يلون بعض مدن الشام إتاوة يؤدونها إلى حكومتهم كل سنة[٣] . وإذا أنعمنا النظر فى الظروف التى فرضت فيها هذه الاتاوة لاتضح لنا مدى حرص القرامطة على الاحتفاظ بسيادتهم على بلاد الشام .

بدأ النزاع بين قرامطة بلاد البحرين والفاطميين منذ استولى الجيش الفاطمى بقيادة جعفر بن فلاح على دمشق ، فقد طالب الحسن ابن أحمد بن أبى سعيد الملقب بالأعصم الذى ولِىَ إمارة القرامطة

---

(١) Hitti. History of the Arabs. p. 460

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ١٧٧ — ١٨٨

(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٢٤٧

سنة ٣٥٩ ﻫ بالإتاوة التى كان يدفعها الاخشيديون لحكومته ، لكن جعفر بن فلاح رفض أداء هذه الإتاوة إليه[١] . وكان لهذه السياسة أسوأ الأثر فى نفس الحسن بن أحمد الذى رأى أن سيادة دولته قد قضى عليها الفاطميون ، هذا بالإضافة إلى حرمان حكومته من ضريبة كبيرة كانت تؤدى إليها .

اتبع الحسن بن أحمد سياسة جديدة إزاء الفاطميين تخالف سياسة من سبقه من أمراء القرامطة الذين كانوا يحرصون على استمرار العلاقات الودية بينهم وبين الخلفاء الفاطميين فى بلاد المغرب ، ويسمحون لهم بالتدخل فى تعيين أمرائهم ، فانتهز فرصة الخلاف الذى وقع بين أفراد أسرته بسبب التنافس على تقلد إمارة القرامطة وأبعد إخوة سابور بن أبى طاهر وأشياعهم — وهم الفريق الذى عرف بولائه للفاطميين — إلى جزيرة أوال[٢] ، كما لم يبد منه أى اعتراض أثناء وجوده بمكة سنة ٣٥٩ ﻫ على إقامة الخطبة للخليفة العباسى المطيع[٣] . كذلك رحب بزعماء الشام — وعلى رأسهم ظالم بن موهوب العُقيلى — الذين لجأوا إليه هرباً من سوء معاملة جعفر بن فلاح قائد الجيش الفاطمى لهم .

ولما رفض الفاطميون أداء الإتاوة إلى الحسن بن أحمد التى كان يدفعها الاخشيديون من قبل لأمير القرامطة ببلاد البحرين ، تجلى

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر . ج ٤ ص ٩٠

(٢) جزيرة بناحية بلاد البحرين ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ص ٣٦٥

(٣) ابن خلدون : ج ٤ ص ٩٠

الخلاف بينهم وبينه . فناصبهم الحسن بن أحمد العداء ، وكتب إليه المعز من بلاد المغرب يهدده ويغلظ له القول ، كما أرسل إلى أتباع أبى طاهر وبنيه الذين أبعدوا إلى جزيرة أوال يخبرهم بأحقية ولد أبى طاهر فى إمارة القرامطة ، فلما علم بذلك الحسن بن أحمد أمر بحذف اسم المعز من الخطبة فى بلاده وإقامة الدعوة للمطيع العباسى ولبس السواد شعار العباسيين[1] .

استقر رأى الحسن بن أحمد على أن يعد نفسه لمحاربة القوات الفاطمية ببلاد الشام وإجلائها عن هذه البلاد . فبعث إلى المطيع العباسى وعز الدولة بختيار أمير بنى بويه فى العراق سنة ٣٦٠ هـ ، يطلب منهما أن يمداه بالمال والرجال ليتسنى له استرداد بلاد الشام ومصر من الفاطميين على أن يتولى حكم هذه البلاد من قبل العباسيين[2] .

ولما كان البويهيون يستأثرون إذ ذاك بالسلطة فى بغداد دون الخليفة العباسى ، لذلك رأوا فى امتداد نفوذ الفاطميين إلى بلاد الشام ما يعرض سلطانهم فى العراق للضعف والزوال ، ومن ثم رحب عز الدولة بختيار بمد القرامطة بالسلاح والمال ومعاونتهم على الوقوف فى وجه الفاطميين ، فأرسل إليهم — كما قال ابن القلانسى[3] — « ألف ألف درهم ، وألف جوشن ، وألف سيف ، وألف رمح ،

(١) ابن خلدون : ج ٤ ص ٩٠

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ٤ ص ٧٤

(٣) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١

وألف قوس، وألف جعبة، وقال: إذا وصل الحسن أبو علىّ الجنابى إلى الكوفة حمل إليه جميع ذلك».

كذلك طلب عز الدولة بختيار إلى الحمدانيين بالموصل إمداد الحسن بن أحمد زعيم القرامطة بالأموال، فلقى هذا الطلب قبولا منهم رغبة فى وقف الزحف الفاطمى، وبلغ من اهتمام عز الدولة بختيار بمديد المساعدة إلى القرامطة أن أرسل إلى أبى تغلب بن ناصر الدولة ابن حمدان. يطلب منه أن يؤدى إلى الحسن بن أحمد مبلغا قدره أربعمائة ألف درهم وفى ذلك يقول النويرى[1]: «وكتب له على أبى تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان بأربعمائة ألف درهم، فرحل الحسن (ابن أحمد) من الكوفة حتى أتى الرحبة. وعليها أبو تغلب ابن حمدان، فحمل إليه المال المسبب له، وحمل إليه العلوفة».

لم تقتصر معاونة أبى تغلب بن ناصر الدولة للحسن بن أحمد على مده بالأموال. بل أمده أيضا بقوة من الرجال قوامها الاخشيدية الذين وفدوا إليه فراراً مما لحق بهم فى مصر وفلسطين على يد جند الفاطميين من المغاربة[2]. وكان لانضواء فريق من العقيليين بزعامة ظالم بن موهوب تحت لواء الحسن بن أحمد أثر كبير فى ازدياد قواته وإحرازه النصر على خصمه[3].

---

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب، جـ ٢٣، ورقة ٩٠.

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ١٧٨.

(٣) حسن إبراهيم وطه شرف: كتاب المعز لدين الله، ص ٩٥.

لما أتم الحسن بن أحمد إعداد جيشه ، سار متجها إلى دمشق سنة ٣٦٠ هـ ليقضى على نفوذ الفاطميين فى بلاد الشام وكان جنوده يحملون الأعلام السود . وقد كتب عليها اسم المطيع عبد الكريم ، وتحته « السادة الراجعون إلى الحق[١] » مما يثبت لنا انحياز القرامطة إلى العباسيين وانصرافهم عن الدعوة الاسماعيلية التى كانت من أهم دعائم دولتهم فى بلاد البحرين .

أما جعفر بن فلاح فإنه بعث فى طلب الحملة التى أرسلها إلى أنطاكية لإجلاء الروم عنها[٢] ، وأخذ فى التأهب لصد قوات الحسن ابن أحمد ، لكنه رغم ذلك لم يكن يتوقع أن يهاجمه القرامطة بقوات ضخمة ، وسرعان ما اشتبكت هذه القوات مع جعفر بن فلاح فى ناحية الدكة على مقربة من دمشق ، حيث دارت معركة انتهى الأمر فيها بهزيمة جعفر وقتله هو وكثير من أتباعه سنة ٣٦٠ هـ . وبذلك تمكن الحسن بن أحمد من الاستيلاء على دمشق .

على أن هذه الهزيمة التى حلت بالجيش الفاطمى فى بلاد الشام ، ترجع على الأغلب إلى عدم إعداد جعفر بن فلاح القوات الكافية لصد القرامطة الذين عولوا على غزو هذه البلاد لاستعادة سلطانهم عليها . وكان يحسن بجعفر بن فلاح أن يبعث إلى جوهر الصقلى فى مصر ليرسل إليه نجدة تعاونه فى توطيد الحكم الفاطمى ببلاد الشام .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٧٤ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ١٧٨ .

يقول المقريزى [١] : « . . فلما صارت الشام له (لجعفر بن فلاح) شمخت نفسه عن مكاتبة جوهر ، فأنفذ كتبه من دمشق إلى المعز وهو بالمغرب سرًّا من جوهر ، يذكر فيها طاعته ، ويقع فى جوهر ، ويصف ما فتح الله للمعز على يده ، فغضب المعز لذلك وردّ كتبه كما هى مختومة ، وكتب إليه قد أخطأت الرأى لنفسك نحن قد أنفذناك مع قائدنا جوهر ، فاكتب إليه فما وصل منك إلينا على يده قرأناه ولا تتجاوز بعد ، فلسنا نفعل لك ذلك على الوجه الذى أردته . وإن كنت أهله عندنا ، ولكننا لا نستفيدُ جوهرا مع طاعته لنا . فزاد غضب جعفر بن فلاح . وانكشف ذلك لجوهر ، فلم يبعث ابن فلاح لجوهر بشىء من أمره إلى أن قدم عليه الحسن ابن أحمد القرمطى » .

اتبع الحسن بن أحمد بعد أن دخلت قواته بلاد الشام سياسة تنطوى على الرغبة فى التودد إلى أهالى هذه البلاد وإاكتساب ولائهم ، فأمّن أهالى دمشق بعد أن تم له فتحها ، كما أقام الدعوة فى مساجدها للخليفة العباسى ، وأمر بحذف اسم الخليفة الفاطمى من الخطبة . وقد لقى عمله هذا ترحيباً من أهالى هذه المدينة ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أنهم كانوا من السنيين المتطرفين فى عدائهم للشيعة والعلويين .

واصل الحسن بن أحمد سيره إلى الرملة بعد فتحه دمشق ليقضى على ما بقى للفاطميين من سلطان ببلاد الشام . وكان يلى هذه المدينة

---

(١) خطط ، ج ١ ص ٣٧٨ .

سعادة بن حيان المغربى ، فلما علم بمسير القرامطة إليها اضطر إلى الرحيل عنها والفرار إلى يافا ؛ فتمهد بذلك السبيل لدخولهم الرملة[١] ، وأصبحت معظم بلاد الشام فى يدهم ، وأقيمت فيها الدعوة للخليفة العباسى ، يقول المقريزى : « وأقام القرامطة الدعوة للمطيع بالله العباسى فى كل بلد فتحوه وسودوا أعلامهم ، وأظهروا أنهم كأمراء النواحى الذين من قبل الخليفة العباسى » .

(١) اتعاظ الحنفا ، ص ١٧٩ .

٢ ـ الصعوبات التى واجهت الفاطميين فى بلاد الشام

(ا) **مناهضة القرامطة النفوذ الفاطمى** : تبدلت صلة المودة بين الفاطميين وقرامطة بلاد البحرين بتأثير السياسة التى سار عليها الحسن ابن أحمد . فهاجم بلاد الشام رغبة فى استعادة سلطة القرامطة على هذه البلاد ولما تم له الاستيلاء عليها رأى أن يولى وجهه شطر مصر حتى لا يعاود الفاطميون مهاجمته من هذه الناحية . فضلا عن رغبته فى بسط سلطانه عليها .

زحفت جيوش الحسن بن أحمد إلى مصر فى أواخر سنة ٣٦٠ هـ فهاجمت مدينة القلزم وتمكنت من دخولها وأسروا واليها الإخشيدى عبد العزيز بن يوسف ، ولم تلبث أن تابعت سيرها فى الأراضى المصرية فى أوائل سنة ٣٦١ هـ ، فاستولت على عين شمس ، ثم تقدمت إلى القاهرة .

تأهب القائد الفاطمى جوهر الصقلى لصد زحف القرامطة منذ أزمعوا المسير إلى مصر ، فأعد جيشا قوامه المغاربة والمصريون ، كما حصن القاهرة بخندق عظيم حفره حولها[1] ، فلما هدد القرامطة هذه المدينة فى ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ ، أبدى الجنود المصريون الذين انضموا إلى جيش جوهر شجاعة فائقة استرعت انتباه

---

(١) المقريزى : خطط ، ج ٢ ص ١٣٧ – ١٣٨

المؤرخين[1] ، فتمكنوا من الوقوف فى وجههم ، وتقهقر الحسن ابن أحمد بجنده ورحل إلى الأحساء[2] . وقد علق المقريزى[3] على هذه الهزيمة التى حلت بالقرامطة بقوله : « ولم يتفق على القرامطة منذ ابتداء أمرهم كسرة أقبح من هذه الكسرة ، وفيها فارقهم من كان قد اجتمع إليهم من الكافورية والإخشيدية ، فقبض جوهر على نحو الألف منهم » .

ظل القرامطة قوة يخشى بأسها رغم انسحاب قواتهم من مصر فى ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ . وقد انتهز جوهر الصقلى فرصة رحيل الحسن بن أحمد إلى الأحساء . فأنفذ جيشاً إلى يافا تمكن من إعادتها إلى حوزة الفاطميين . على أن الحسن بن أحمد ما لبث بعد عودته إلى دمشق أن وجه اهتمامه إلى استرداد نفوذه ببلاد الشام ، ثم أخذ فى التأهب للمسير إلى مصر . فأعد حملة بحرية أرسلها إلى تنيس وسواحل مصر ، كما جهز جيشاً ضم إليه عددا كبيرا من العرب[4]

لما قدم المعز لدين الله الفاطمى من المغرب إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ واتخذ القاهرة حاضرة لخلافته ، وجه سياسته إلى مناهضة نفوذ القرامطة حتى يتيسر له توطيد أركان دولته فى مصر والشام ،

---

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages. p. 107.

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٢٥٠

(٣) خطط ، ج ١ ، ص ١٣٨

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٢٥٠

فرأى أن يبعث إلى الحسن بن أحمد بكتاب قبل أن يشتبك معه فى الحرب لعله ينجح فى إثارة الساخطين من القرامطة عليه وحمله على العدول عن موقفه العدائى من الفاطميين .

وقد أشار المعز فى هذا الكتاب(١) إلى ما عرف عن القرامطة من حرص على التودد إلى الفاطميين ، كما أخذ على الحسن بن أحمد خروجه على هذه السياسة التى اتبعها أسلافه من أمراء القرامطة ببلاد البحرين . فقال : « فأما أنت الغادر الخائن ، الناكث البائن ، عن هدى آبائه وأجداده ، المنسلخ عن دين أسلافه وأنداده ، والموقد لنار الفتنة ، والخارج عن الجماعة والسنة ، فلم أغفل أمرك ، ولا خفى عنى خبرك . أما كان لك بجـــدك أبى سعيد أسوة . وبعمل أبى طاهر قدوة ؟ أما نظرت فى كتبهم وأخبارهم ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم؟ أكنت غائباً عن ديارهم وما كان من آثارهم؟ ألم تعلم أنهم كانوا عباداً لنا أولى بأس وعزم شديد وأمر رشيد وفعل حميد . يفيض إليهم موادنا ، وينشر عليهم بركاتنا ، حتى ظهروا على الأعمـال ودان لهم كل أمير ووال . ولقبوا بالسادة فسادوا ، منحةً منا واسماً من أسمائنا ، فَعَلت أسماؤهم واشتعلت هممهم ، واشتد عزمهم . فسارت إليهم وفود الآفاق وامتدت نحوهم الأحداق ، وخضعت لهيبتهم الأعناق ، وخيف منهم الفساد والعناد، وأن يكونوا لبنى العباس أضداد . فعُبّئت الجيوش وسار إليهم كل خميس بالرجال المنتجة . والعدد المهذبة ، والعساكر

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ص ٢٥٨ — ٢٦٥

الموكبة . فلم يلقهم جيش إلا كسروه ، ولا رئيس إلا أسروه ، ولا عسكر إلا كسروه ، وألحاظنا ترمقهم ، ونصرنا يلحقهم ، كما قال الله عز وجل (إنّا لننصُرُ رسُلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا) ، (وإنّ جندنا لهم الغالبون) ، وإن حزبنا لهم المنصورون » .

« فلم يزل ذلك دأبهم ، وعينُ الله ترمقهم ، إلى أن اختاره لهم ما اختاروه من نقلهم من دار الفناء إلى دار البقاء ، ومن نعيم يزول إلى نعيم لا يزول . فعاشوا محمودين ، وانتقلوا مفقودين ، إلى روح وريحان وجنات النعيم ، فطوبى لهم وحسن مآب» .

وقد وضح المعز أيضاً فى كتابه مدى انتشار الدعوة الفاطمية فى كثير من أرجاء العالم الإسلامى ، وعاب على الحسن بن أحمد انصرافه عنها فقال : « ومع هذا ، فما من جزيرة فى الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا ، ويدلون علينا ، ويأخذون تبعتنا ، ويذكرون رجعتنا ، وينشرون علمنا ، وينذرون بأسنا ، ويبشرون بأيامنا ، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن ، وفى كل جزيرة وإقليم رجال منهم يفقهون ، وعنهم يأخذون ، وهو قول الله عز وجل : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم) . وأنت عارف بذلك ، فيأيها الناكث الحانث ما الذى أرداك وصدّك؟ أشيء شككت فيه ، أم أمر استربت به ، أم كنت خلياً من الحكمة ، وخارجا عن الكلمة ، فأزالك وصدك ، وعن السبيل ردك ؟ إن هى إلا فتنة لكم ومتاع إلى حين ، وأيم الله لقد كان الأعلى لجدك ،

والأرفع لقدرك . والأفضل لجدك ، والأوسع لوفدك ، والأنضر لعودك ، والأحسن لعذرك ، الكشف عن أحوال سلفك ، وإن خُفيت عليك ، والقفو لآثارهم ، وإن عميت لديك ، لتجرى على سننهم وتدخل فى زمرهم ، وتسلك فى مذهبهم » .

كذلك أظهر المعز فى كتابه استياءه من إقامة الحسن بن أحمد الدعوة لبنى العباس ، مع ما أصابها من وهن وضعف ، فقال : « ثم تقنع فى انتكاسك وترديتك فى ارتكاسك ، وارتباكك وانعكاسك ، من خلافك الآباء ومشيك القهقرى ، والنكوص على الأعقاب ، والتسمى بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان . وعصيانك مولاك ، وجحدك ولاءك ، حتى انقلبت على الأدبار ، وتحملت عظيم الأوزار ، لتقيم دعوة قد درست ودولة قد طمست ، إنك لمن الغابرين ، وإنك لفى ضلال مبين . أم تريد أن ترد القرون السالفة . والأشخاص الغابرة ، أما علمت أن المطيع آخر ولد العباس ، وآخر المتاريس فى الناس ، أم تراهم (كأنهم أعجازُ نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقيةٍ) ، خُتم والله الخطاب . وطوى الكتاب ، وعد الأمر إلى أهله ، والزمان إلى أوله . وأزفت الآزفة ، ووقعت الواقعة . وقرعت القارعة ، وطلعت الشمس من مغربها . والآية من وطنها ، وجئ بالملائكة والنبيين وخسر هنالك المبطلون ، هنالك الولاية لله الحق ، والملك لله الواحد القهار ، فله الأمر من قبلُ ومن بعد » .

لم يفت المعز فى كتابه أن يلوم الحسن بن أحمد على حشده القوات لغزو بلاد الشام، وقتله جعفر بن فلاح قائد الجيش الفاطمى وكثيراً من جنده، كما عدد له الأحداث التى ارتكبها أثناء هجومه على هذه البلاد من استباحته الأموال وسبيه النساء، فقال: «ثم لم يكفك ذلك — مع بلائك وطول شقائك — حتى جمعت أرجاسك وأنجاسك، وحشدت أوباشك وأقلاسك[1] وسرت قاصداً إلى دمشق وبها جعفر بن فلاح فى فئة قليلة من كتامة وزويلة، فقتلته وقتلتهم — جرأة على الله ورداً لأمره — واستبحت أموالهم، وسبيت نساءهم، وليس بينك ولا بينهم ترة ولا ثأر، ولا حقد ولا أضرار، ففعل بنى الأصفر والترك والخزر، ثم سرت أمامك ولم ترجع، وأقمت على كفرك ولم تنزع، حتى أتيت الرملة وفيها سعادة ابن حيّان فى زمرة قليلة وفرقة يسيرة؛ فاعتزل عنك إلى يافا، مستكفيا شرك، وتاركا حربك، فلم تزل ما كثاً على نكثك باكرا وصابحا، وغادياً ورائحاً، تقعد لهم بكل مقعد، وتأخذ عليهم بكل مرصد وتقصدهم بكل مقصد، كأنهم ترك وروم وخزر، لا ينهاك عن سفك الدماء دين ولا يردعك عهد ولا يقين».

وفى نهاية الكتاب عرض المعز على الحسن بن أحمد ثلاث خصال ليختار منها واحدة يعمل على تحقيقها، وهدده بسوء العاقبة، فقال: «ونحن معرضون ثلاث خصال — والرابعة أردى

(١) ما خرج من الحلق وملأ الفم (حاشية رقم ٣، ص ٣١٤ — كتاب المعز لدين الله)

لك ، وأشق لبالك ، وما أحسبك تحصل إلا عليها — فاختر : إما قدت نفسك لجعفر بن فلاح وأتباعك بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله ورجال سعادة بن حيّان ، ورد جميع ما كان لهم من رجال وكراع ومتاع إلى آخر حبة من عقال ناقة وخطام بعير — وهى أسهل ما يرد عليك — وإما أن تردهم أحياء فى صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم — ولا سبيل لك إلى ذلك ولا اقتدار — وإما سرت ومن معك بغير ذمام ولا أمان فأحكم فيك وفيهم بما حكمت ، وأجريكم على إحدى ثلاث : إما قصاص . وإما منّا بعد . وإما فداء ؛ فعسى أن يكون تمحيصاً لذنوبك وإقالة لعثرتك ، وإن أبيت إلا فعل اللعين : (فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين) ، أخرج منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، وقيل اخسئوا فيها ولا تكلمون ، فما أنت إلا كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، فلا سماء تظلك ولا أرض تقلك ، ولا ليل يجنك ، ولا نهار يكنك ، ولا علم يسترك ولا فئة تنصرك » .

لم يعدل الحسن بن أحمد — بعد أن وصله كتاب المعز — عن سياسته التى تنطوى على مناهضة النفوذ الفاطمي ، بل أظهر عدم اكتراثه بتهديد المعز له ، وأساء فى رده ، فكتب إليه : « وصل كتابك الذى قل تحصيله وكثر تفصيله ونحن سائرون إليك على أثره والسلام[1] » . ثم زحف على مصر سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) وتوغلت

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ . جـ ٨ ص ٢١١

جنوده فى الأراضى المصرية ، كما تقدمت القوة الرئيسية من جيشه نحو القاهرة وعسكرت بالقرب من الخندق الذى حفره جوهر ولما علم المعز بنبـأ وصوله هاله كثرة قواته ، فأشار عليه أهل الرأى من نصحائه بالسعى فى تفريق كلمتهم ؛ فعمد إلى استمالة حسان بن الجراح الطائى رئيس جند العرب الذين يعدون أقوى عناصر جيش الحسن ابن أحمد . واتفق معه على أن يدفع إليه مائة ألف دينار على أن يتظاهر بالهزيمة أمام جند الفاطميين[1] . وكان هذا المبلغ كافيا لحمل بنى طيء على الانصراف عن حليفهم الحسن بن أحمد ، فلما دارت الحرب بين الفريقين . تقهقر حسان بن الجراح أمام قوات المعز ، فأدى ذلك إلى هزيمة الحسن بن أحمد وارتداده إلى الشام[2] ، وأسر الفاطميون نحو ألف وخمسمائة من القرامطة

وقد رأى المعز رغم نجاح قواته فى صد هجمات القرامطة عن مصر أن ينفذ حملة بقيادة أبى محمود بن جعفر بن فلاح لمطاردة جيش القرامطة فى الشام . حتى لا يعاود المسير إلى مصر ، فلحقت بهم فى أذرعات[3] . أما الحسن بن أحمد فإنه بعد أن وصل إلى دمشق ، ترك بها أبا المنجا القرمطى واليا عليها من قبله ورحل مع بعض رجاله إلى الأحساء[4] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢١١

(٢) النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٣ ، ورقة ٩٧

(٣) أذرعات : مدينة بأطراف الشام قبل الحجاز

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ، ص ٢١١

اتجهت سياسة المعز بعد أن عجز الحسن بن أحمد عن الاستيلاء على مدينة القاهرة للمرة الثانية واضطراره إلى التقهقر بجيوشه إلى القضاء على ما بقى للقرامطة من نفوذ ببلاد الشام ، وتحقيقا لهذا الغرض ، رأى أن يستعين ببنى الجراح من بنى طيء على استرداد هذه البلاد ، كما قرب إليه ظالم بن موهوب العقيلى بعد انصرافه عن تأييد الحسن ابن أحمد ، وأسند إليه ولاية دمشق (رمضان سنة ٣٦٣ هـ) ، فقبض على واليها أبى المنجا القرمطى وعلى كثير من أتباعه القرامطة ؛ وبذلك تمت استعادة سلطان الفاطميين على بلاد الشام[1] .

لم تستقر الأمور فى دمشق بتقلد ظالم بن موهوب العقيلى ولايتها ، فقد أرسل المعز جيشا من المغاربة بقيادة أبى محمود بن جعفر ليعاونه فى المحافظة على الأمن ، ولصد القرامطة إذا ما حاولوا العودة إلى بلاد الشام ؛ لكن هؤلاء المغاربة ما لبثوا أن انصرفوا إلى العبث والفساد وقطع الطريق مما أدى إلى تذمر أهالى دمشق واشتباكهم مع جند الفاطميين فى بعض المعارك . ولا شك أن هذه الأحداث تعد من أكبر الصعاب التى واجهت ظالم بن موهوب ؛ فاضطر إلى الخروج بنفسه لإخماد حركات المغاربة . يقول ابن القلانسى[2] : « فلما شاهد (ظالم بن موهوب) انهزام الناس والمغاربة فى أثرهم ، استدعى رمحه وعبر الجسر ومعه فرقة من أصحابه وحمل على أوائل المغاربة ، فردهم أحداث البلد » على أن ظالم بن موهوب لم يحظ برضاء أى فريق

---

(١) ابن خلدون : ج ٤ ص ٩٠ .

(٢) ذيل تاريخ دمشق : ص ٥ .

من الفريقين المتنازعين بدمشق ، وما لبث أن عُزل فى ربيع الآخر سنة ٣٦٤ هـ وخلفه جيش بن الصمصامة الذى اشترك مع ابن أخته القائد أبى محمود بن جعفر فى إدارة أمور دمشق[١] .

لم تتمتع دمشق طويلا بالهدوء مما ساعد على عدم استقرار الحكم الفاطمى فيها . فقامت الفتنة من جديد بين أهالى هذه المدينة وجند المغاربة ، ونتج عنها إثارة الاضطراب بين الناس . وتخريب المنازل وإغلاق الطرق ووقف حركة البيع والشراء ، كما توفى كثير من الفقراء على قارعة الطريق بسبب الجوع والبرد .

لما وصل إلى المعز لدين الله نبأ الاضطراب الذى حدث بدمشق ، ثبت لديه أن هناك صعوبات تواجه حكمه فى بلاد الشام ، ومن ثم عوّل على إقرار النظام فيها . فبعث فى طلب ريان الخادم واليه على طرابلس وعهد إليه بدراسة الحالة فى دمشق ، وقمع الفتن التى ثارت بين أهالى هذه المدينة وبين جند المغاربة ، كما قلده ولايتها بعد عزل القائد أبى محمود بن جعفر الذى سار فى جماعة قليلة من العسكر إلى الرملة[٢] . وقد بذل ريان الخادم جهده فى تهدئة الحالة فى دمشق والتوفيق بين أهلها وجند المغاربة .

(ب) حركة أفتكين التركى : أدت الاضطرابات التى سادت مدينة دمشق فى أواخر عهد المعز إلى إضعاف الحكم الفاطمى فيها . وقد

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ص ٢١١ — ٢١٢

(٢) ابن الأثير : جـ ٨ ص ٢١٢

مهدت هذه الحالة السبيل لدخول فريق من الأتراك بزعامة أفتكين[١] بلاد الشام، واستقرارهم بها . وبذلك واجه الفاطميون عنصرا جديدا لعب دورا هاما فى مناهضة نفوذهم فى هذه البلاد .

سار أفتكين التركى من بغداد قاصدا بلاد الشام مع فريق من جنده بعد انهزامه فى المعركة التى دارت بين الأتراك والديلم، فخرج إليه ظالم بن موهوب العقيلى من بعلبك ليحول دون تقدمه فى هذه البلاد . وأرسل إلى القائد أبى محمود بن جعفر أمير دمشق يخبره بقدوم أفتكين التركى وأنه يزمع السير إلى دمشق لإقامة الخطبة للخليفة العباسى، وحذره منه ؛ فأنفذ إليه جيشا ليعاونه فى محاربته .

على أن أفتكين ما لبث أن استنجد بالحمدانيين فى حلب، فأمده سعد الدولة أبو المعالى بن سيف الدولة الحمدانى (٣٥٦ — ٣٧١ هـ) بجند كثير واستقبله فى حمص بالحفاوة والتكريم ؛ واضطر ظالم ابن موهوب إلى العودة إلى بعلبك دون أن يشترك فى حرب .

وقد انتهز بعض العناصر الثائرة بدمشق فرصة قدوم أفتكين إلى بلاد الشام، فبعثوا يستدعونه من حمص ووعدوه بمعاونته فى إخراج الحامية الفاطمية من دمشق ؛ كما أن شيوخ هذه المدينة وأشرافها

---

(١) بدأ أفتكين (أبو منصور التركى الشرابى) عهده فى خدمة معز الدولة أحمد ابن بويه . وما زال يترقى فى المناصب حتى ولى قيادة جند الأتراك فى بغداد فى أيام عز الدولة بختيار أمير بنى بويه بالعراق (٣٥٦ — ٣٦٧ هـ) .

المقريزى : خطط، جـ ١، ص ٩ .

رحبوا بقدوم أفتكين حين بلغهم أنه في طريقه إليها ، وخرجو لمقابلته ، وطلبوا منه أن يتولى الحكم في بلدهم لينقذهم من الفاطميين الذين يخالفونهم في المذهب الديني ، فأظهر استعداده لإجابة طلبهم ؛ وتعهد له شيوخ دمشق بمعاونته وأن يكونوا في طاعته . أما أفتكين فتعهد بحمايتهم وكف الأذى عنهم ، ثم دخل دمشق في شعبان سنة ٣٦٤ هـ وأخرج منها واليها ريان الخادم ، وأمر بذكر اسم الخليفة العباسي الطائع في الخطبة بدلا من المعز لدين الله الفاطمي[1] .

رأى أفتكين رغم نجاحه في الاستيلاء على دمشق وقضائه على نفوذ الفاطميين فيها أن يستميل المعز لدين الله لاعتقاده أن قواته ستعاود الهجوم على بلاد الشام لتوطيد سلطانه عليها . فكتب إليه رسالة على سبيل التمويه والانقياد له والطاعة لأوامره : فبعث إليه المعز يدعوه للحضور إليه ليخلع عليه ويقره على ولايته . لكن أفتكين لم يجبه إلى طلبه لعدم وثوقه بما وعد به[2] ، خشية تعرضه لمكيدة يدبرها له الخليفة الفاطمي وخاصة أنه حارب ولاة الفاطميين في حمص وانتصر عليهم ، كما طرد واليهم على دمشق .

لم يكتف أفتكين باستيلائه على دمشق ، بل رأى أن يبسط نفوذه على مدن الشام . فاتجه إلى صيدا حيث اشتبك مع واليها من قبل المعز في معركة انتهى الأمر فيها بهزيمة هذا الوالي ، ثم قصد عكا ، ومنها

---

(١) ابن الأثير : جـ ٨ ، ص ٢١٧ — ٢١٨ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢ .

توجه إلى طبرية وعاد إلى دمشق بعد تغلبه على قوات الفاطميين بهذه المدن.

لما فرغ العزيز بالله الفاطمى من توطيد سلطته بمصر بعد أن آلت إليه الخلافة فى ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ، وجه اهتمامه إلى استرداد بلاد الشام. واستشار وزيره يعقوب بن كلس فيما يفعل لتحقيق هذه الغاية، فأشار عليه بأن يعهد إلى جوهر الصقلى بقيادة جيش يزحف به إلى دمشق، فلما علم أفتكين بمسيره، خشى من الأخطار التى قد تحدق بأهل دمشق من جراء هجوم الجيش الفاطمى على بلدهم، فاجتمع بهم وأظهر لهم استعداده للرحيل عن دمشق حتى لا يلحقهم أى أذى بسببه، فأكدوا له حرصهم على التمسك ببقائه معهم بقولهم: «لا نمكنك من فراقنا ونحن نبذل الأنفس والأموال فى هواك وننصرك»، فعدل أفتكين عن مغادرة دمشق وأعد العدة لمواجهة قوات الفاطميين؛ فلما وصل جوهر إلى دمشق على رأس هذه القوات فى ذى القعدة سنة ٣٦٥ هـ، حاصر المدينة، وأبدى أفتكين شجاعة فائقة فى محاربته؛ غير أن جند الفاطميين من المغاربة ظلوا فترة طويلة يحاصرون دمشق مما أدى إلى تذمر أهلها، فأشاروا على أفتكين بمكاتبة الحسن بن أحمد زعيم القرامطة ببلاد البحرين، فكتب إليه يستنجده، فسار إليه من الأحساء[1].

رأى جوهر الصقلى بعد أن وصله خبر قدوم القرامطة أنه

(١) ابن الأثير: ج ٧ ص ٢١٨

لا قبلَ له بمواجهة عدوين . لذلك اضطر إلى رفع الحصار عن دمشق وقصد الرملة ، غير أنه لم يكد يصل إليها حتى سار فى أثره الحسن ابن أحمد وأفتكين . وكان ذلك مما حمله على الرحيل إلى عسقلان ، ولما اشتدت به الحال وندر وصول الأقوات والمؤن اليه . أرسل إلى أفتكين يطلب منه المهادنة ، كما أبدى رغبته فى مقابلته ، فرحب بلقائه ، ولما اجتمع به جوهر قال له « قد عرفت ما يجمعنا من عصمة الإسلام وحرمة الدين ، وقد طالت هذه الفتنة وأريقت فيها الدماء ونهبت الأموال ونحن المؤاخذون بها عند الله تعالى ، وقد دعوتك إلى الصلح والطاعة والموافقة وبذلت لك الرغائب ، فأبيت إلا القبول ممن يشب نار الفتنة، فراقب الله تعالى وراجع نفسك وغلّب رأيك على هوى غيرك » . فأجابه أفتكين بقوله : « أنا والله واثق بك فى صحة الرأى والمشورة منك ، لكنى غير متمكن مما تدعونى إليه بسبب القرمطى الذى أحوجتنى أنت إلى مداراته والقبول منه[1] » .

ظل جوهر يلح على أفتكين فى طلب الصلح ، حتى أجابه إلى طلبه على أن يؤدى اليه مالا معينا ، ويخرج من تحت سيفه ورمح الحسن ابن أحمد ، فمر جوهر من تحتهما وهما معلقان على باب عسقلان وسار قاصداً القاهرة[2] ، وهو على يقين من أنه قد تعرض للاهانة والمذلة بسبب هذا الصلح الذى سعى إليه مضطراً . وكان يأمل أن تتاح له

---

(١) ابن الأثير : ج ٨ ، ص ٢١٨

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧ — ، المقريزى : خطط ج ٢ ، ص ١٠ .

الفرصة ليعود مرة ثانية إلى بلاد الشام فيقضى على أفتكين وحلفائه القرامطة .

لما وصل جوهر إلى مصر أوضح للخليفة العزيز حقيقة الحال فى بلاد الشام وما أصاب سلطان الفاطميين فيها من ضعف وانحلال ، فاستقر رأى الخليفة الفاطمى على الخروج بنفسه لاستعادة نفوذه على هذه البلاد ، وسار على رأس جيش كبير ، وجعل جوهر على مقدمته[(1)] .

أعد كل من أفتكين والحسن بن أحمد القرمطى العدة لمواجهة زحف الجيش الفاطمى على بلاد الشام ، فحشدا جموعا كثيرة من العرب وغيرهم ، وعادا إلى الرملة حيث دار القتال بين الفريقين فى المحرم سنة ٣٦٧ هـ . وقد شاهد العزيز فى هذه الحرب من شجاعة أفتكين ما أعجبه ، فأرسل إليه يدعوه إلى طاعته ، ويعده بأن يقلده الولايات ويجعله مقدم عسكره ومستشاره فى دولته . كما طلب منه أن يحضر لمقابلته . فقال أفتكين لرسول العزيز : قل لأمير المؤمنين لو قدم هذا القول لسارعت وأطعت وأما الآن فلا يمكن إلا ما ترى » . ثم واصل السير لمحاربة الفاطميين ، فأوقع العزيز الهزيمة بقواته ، ومضى أفتكين هاربا ، ثم سيق إلى القاهرة مع بعض أنصاره من الأتراك . حيث عفا عنه الخليفة وعامله معاملة قوامها العطف والرعاية ، وخصص له دارا لإقامته[(2)] .

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ، ص ٢١٩

(٢) المقريزى خطط . جـ ٢ ، ص ١٠

أما الحسن بن أحمد ، فإنه سار منهزماً إلى طبرية[١] حيث لحق به رسول العزيز الذي دعاه إلى مقابلة الخليفة ووعده بأنه سيكون موضع رعايته ، فلم تلق هذه الدعوة قبولا منه[٢] ، ثم رحل إلى الأحساء مع أنصاره من القرامطة بعد أن اتفق معه العزيز على أن يدفع له تعويضا سنويا قدره عشرون ألف دينار طيلة حياته[٣] .

وهكذا فشلت الحركة التي أثارها أفتكين التركي في بلاد الشام ، كما زال نفوذ القرامطة في هذه البلاد واضطروا إلى الجلاء عنها ، مما سهل على الفاطميين استعادة دمشق إلى حوزتهم .

* * *

(حـ) موقف أمراء العرب بالشام من الفاطميين : حاول بنو طيء بفلسطين في أواخر القرن الرابع الهجري تكوين دولة لهم والاستقلال عن الخلافة الفاطمية ، فثار بالرملة سنة ٣٨٨ هـ زعيمهم مفرّج بن دغفل ابن الجراح ، فأرسل بَرْجوان الوصي على الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي إلى فلسطين حملة بقيادة جيش بن الصمصامة ، فسار إلى الرملة واستولى عليها وأخضع ثوارها ، وطارد مفرّج بن الجراح وقواته حتى طلب الأمان والصلح . فعفا عنه وأمنه[٤] ، ثم عادت الفتنة بفلسطين سنة ٤٠٠ هـ عندما نقم الحاكم بأمر الله على آل المغربي

---

(١) ابن خلدون : جـ ٤ ، ص ٩١ .

(٢) ابن الأثير : جـ ٨ ، ص ٢١٩ .

(٣) Gaston Wiet, Histoire de La Nation Egyptienne. Vol. 4. P. 181—182.

(٤) ابن الأثير : جـ ٩ ، ص ٤١ .

بمصر . ففر الوزير أبو القاسم حسن بن علي بن المغربي[٢] إلى حسّان ابن مفرج بن دغفل بن الجراح أمير طيء بالرملة ، وحسّن له خلع طاعة الحاكم ، فزحف حسان إلى الرملة واستولى عليها وقتل واليها من قبل الفاطميين وعاث فيها فسادا .

اتفق بنو الجراح سنة ٤٠١ هـ على استدعاء أبي الفتوح الحسن ابن جعفر الحسني أمير مكة ليبايعوه بالخلافة[٢] . فأوفدوا إليه الوزير أبا القاسم بن المغربي ليغريه بالخروج على الحاكم بأمر الله[٣] . فلما قدم هذا الوزير مكة ، أطمع أميرها أبا الفتوح في الرياسة وحرضه على طلب الخلافة ، كما حثه على الخروج إلى الرملة إجابة لرجاء حسّان ابن مفرج بن الجراح الذي سيكون خير عون له على تثبيت سلطته ، فرحب الأمير أبو الفتوح بهذه الدعوة وأقام الخطبة لنفسه وتلقب بالراشد بالله ، ثم سار من مكة قاصداً الرملة وبصحبته أبي القاسم ابن المغربي وبعض أنصاره من القبائل العربية . فلما اقترب من الرملة تلقاه حسان بن مفرج بن الجراح وأولاده وسائر وجوه العرب بالترحاب وترجلوا له وبايعوه بالخلافة ، ونزل أبو الفتوح في دار حسان ونادى في الناس بالأمان . وأقيمت له الخطبة في كثير من بلاد الشام[٤]

---

(١) كان هذا الوزير ناقما على الحاكم بأمر الله لغدره بأبيه وأعمامه.
راجع كتاب النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب للمؤلف ، ص ١٧

(٢) ابن خلدون ج ٤ ، ص ٥٧

(٣) المقريزي : خطط ، ج ٢ ص ١٥٧ ، ٢٨٧

(٤) عبد القادر الأنصاري . درر الفرائد المنظمة ، ج ١ ص ٢٠٧ — ٢٠٨

لما وصل إلى الحاكم بأمر الله نبأ خروج أبى الفتوح أمير مكة عليه ومبايعة بنى الجراح له بالخلافة ، بعث حملة إلى فلسطين للقضاء على هذه الحركة غير أن هذه الحملة حلت بها الهزيمة واستفحل نفوذ بنى الجراح ، وبسطوا سلطانهم على جنوب بلاد الشام ، فعمد الخليفة الحاكم بأمر الله إلى استمالة حسان وأبيه مفرّج وغيرهما من بنى طيء بالأموال التى بذلها لهم ؛ فانحرف بنو الجراح عن الأمير أبى الفتوح بعد أن بايعوه بالخلافة . ولما أحسّ أبو الفتوح بخذلانهم إياه وعدولهم عن رأيهم فى العمل على تقوية نفوذه ، ذهب إلى مفرّج بن الجراح وأخبره بانصراف أولاده عن تأييده ، وقال له : « أريد أن تبعث معى من يوصلنى إلى مكة ولا تحرجنى » ؛ فبعث معه جماعة من بنى طيء ولم يزالوا معه حتى بلغ مكة سنة ٤٠٣ هـ ، فتلقاه أتباعه ، وكاتب الحاكم واعتذر إليه ؛ فقَبِلَ عُذْرَه وعفا عنه ، وأعاده إلى إمارته بمكة[١] ، وعمل الأمير أبو الفتوح منذ عودته إلى مكة على إقامة الدعوة للحاكم بأمر الله ، كما نقش اسمه على السّكة[٢] .

ظل بنو الجراح متغلبين على بعض نواحى جنوب بلاد الشام حتى سنة ٤٠٤ ، ولم يتوان الفاطميون عن قتالهم خلال تلك الفترة ، فجهز الخليفة الحاكم العساكر إلى الشام بقيادة على بن جعفر بن فلاح ،

---

(١) ابن خلدون : ج ٤ ، ص ٤٧٣ . عبد القادر الأنصارى : درر الفرائد المنظمة ، ص ٢٠٨ .

(٢) المقريزى : خطط ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ .
راجع كتاب النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب للمؤلف ص ١٧ — ١١

فقصد الرملة وهزم حسَّان بن مفرج وقومه الطائيين واستولى على أموالهم وذخائرهم ، ثم سار إلى دمشق ، فاستولى عليها وتولى إمارتها[(١)] .

ضعف شأن بنى الجراح بفلسطين بعد الهزيمة التى حلت بهم فى أواخر عهد الحاكم بأمر الله واستعاد الفاطميون نفوذهم بهذا الإقليم ، وظل الحال على ذلك حتى ولى الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله الخلافة ، فحاول حسَّان بن مفرج بن الجراح استرداد سلطانه بالرملة ، وما لبث أن حشد جموعه وهاجمها ونهبها . ولم تقف أطماعه عند هذا الحد بل عمل على الاستقلال بفلسطين ، وتحقيقاً لهذه الغاية عقد اتفاقا سنة ٤١٥ هـ مع صالح بن مرداس أمير بنى كلاب وسنان بن عليان أمير الكلبيين يتضمن أن تتحد قواهم جميعا لاخراج الفاطميين من بلاد الشام وتقسيمها بينهم على أن يكون من حلب إلى عانة على نهر الفرات لصالح ابن مرداس، ومن الرملة إلى حدود مصر لحسان أمير الطائيين ، ودمشق وما يحيط بها لسنان بن عليان وعشيرته[(٢)] . وقد أطلع هؤلاء الأمراء الامبراطور البيزنطى باسيل الثانى على هذا الاتفاق وطلبوا معونته لكنه لم يجب طلبهم[(٣)] .

لما رأى الخليفة الظاهر الفاطمى الخطر الذى يهدد سلطان الفاطميين

---

(١) ابن الأثير : جـ ٩ ، ص ٤٣ ، ابن خلدون : جـ ٤ ، ص ٥٧ .

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكى : صلة التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، جـ ٢ ، ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(٣) Gaston Wiet. Histoire de La Nation Egyptienne. Vol. 4. P. 216 – 217.

بلاد الشام من جراء ذلك الاتفاق الذى عقده بعض زعماء العرب ، جهز جيشا سنة ٤٢٠ هـ لمحاربة هذه القوى المتحالفة ، وأسند قيادته لأنوشتكين الدزبرى [١] . وقد تمكن القائد الفاطمى من إلحاق الهزيمة بقوات حلف عرب الشام عند طبرية ، وقُتل صالح بن مرداس ، وهرب حسان بن الجراح الطائى إلى الأمبراطور البيزنطى ليحتمى فى بلاطه . وبهذا النصر استرد الفاطميون البقاع الجنوبية والوسطى من سورية . أما حلب فظلت بيد نصر بن صالح بن مرداس الذى تلقب بشبل الدولة [٢] .

كذلك واجه الفاطميون عدة صعوبات فى سبيل بسط سيادتهم على شمال بلاد الشام حيث أقام الحمدانيون دولتهم فى حلب وكان هؤلاء الحمدانيون يخشون ازدياد نفوذ الفاطميين السياسى ، فلما دعاهم جعفر بن فلاح — بعد أن تم له فتح دمشق — إلى إقامة الخطبة للخليفة الفاطمى على منابر بلادهم ، وهددهم بالاستيلاء على حلب ، أثار هذا التهديد سخطهم ، وعملوا على مساعدة القرامطة ليقضوا على نفوذ الفاطميين ببلاد الشام [٣] .

على أن الحمدانيين لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون الوقوف فى وجه الفاطميين ، ففى عهد سعد الدولة بن سيف الدولة (٣٥٠ — ٣٨١ هـ) ، بدأ الضعف يظهر فى الدولة الحمدانية فى حلب ، فثار عليه

---

(١) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ١٢٨ .

(٢) تاريخ يحي بن سعيد الأنطاكى ، ص ٢٤٨ : تاريخ ابن الوردى ج ١ ص ٣٢٣ — ٣٢٤ .

(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٣ ، ص ٣٥٨ .

قرغويه — أحد أتباع أبيه — واستولى على حلب ، وحال دون دخوله إليها ، فقصد سعد الدولة حمص وآثر البقاء بها وانحاز إلى جانب الفاطميين وأقام الخطبة للمعز لدين الله الفاطمي[1] ، ثم وجه اهتمامه إلى استرداد حلب ، فسار إليها على رأس جيش من العرب من بني كلاب وغيرهم وتمكن من استعادة سلطانه عليها بعد أن ظل يحاصرها أربعة أشهر ، وأسند ولاية حمص إلى غلامه بكجور التركي سنة ٣٦٦ هـ[2] .

على أن سعد الدولة لم يتمتع بالطمأنينة ، فشغل بمحاربة بكجور الذي كتب إلى العزيز بالله الفاطمي يطلب إليـــه أن يوليه دمشق ، وينجده بقوة يستعين بها في الاستيلاء على حلب ، فأجاب الخليفة الفاطمي طلبه سنة ٣٧٣ هـ ، وسار بكجور إلى هذه المدينة وحاصرها ، لكنه اضطر إلى الارتداد عنها أمام قوات الروم التي استعان بها سعد الدولة الحمداني ، وعاد إلى دمشق ليتولى إمارتها . غير أنه عامل أهلها معاملة تنطوي على العنف والشدة مما جعلهم يتذمرون من حكمه ، كما أضمر له الوزير الفاطمي يعقوب بن كلس العداء لتنكيله بأتباعه ، فصار يحول دون تحقيق رغباته ، ثم أشار على العزيز بعزله ، فأجاب طلبه بعد أن بلغه سوء سيرته في دمشق ، ورحل بكجور إلى الرقة (على نهر الفرات) حيث طلب من سعد الدولة الحمداني أن يعيده إلى ولاية حمص ، فلم يظفر منه بشيء[3] .

---

(١) ابن الأثير : جـ ٨ ، ص ١٩٧ — ٢٠٢ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧ — ٢٨

(٣) ابن الأثير : جـ ٩ ، ص ١٩ — ٢٠ ، ٢٩ .

ظل بكجور أثناء إقامته بالرقة يواصل جهوده للاستيلاء على حلب، فراسل جماعة من مماليك سعد الدولة الحمدانى، واستمالهم إليه، فأظهروا له ترحيبهم بقدومه إلى حلب، كما أخبروه بأن سعد الدولة منشغل بملذاته عن تدبير شئون دولته، فعزم بكجور على انتهاز هذه الفرصة لتحقيق أطماعه، ورأى أن يستعين بالفاطميين لعله يظفر بتأييدهم، فأرسل إلى العزيز بالله يطمعه فى حلب ويقول له: «إنها دهليز العراق. ومتى أخذت كان ما بعدها أسهل منها»، كما طلب منه أن ينفذ إليه نجدة من جنده، فعمل العزيز على تلبية طلبه[1]، وأرسل إلى واليه بطرابلس بأن يكون على أهبة الاستعداد للمسير إليه لمساعدته[2]

لما علم سعد الدولة الحمدانى بوصول بكجور إلى حلب، بعث إلى باسيل الثانى امبراطور الروم، يخبره بخروج بكجور عليه ويطلب منه النجدة، فأرسل باسيل إلى واليه بأنطاكية يأمره بمعاونته[3]، وقامت الحرب بين بكجور يعاونه المغاربة والعرب، وسعد الدولة الذى استعان بالروم والأرمن والديلم والأتراك وبعض العرب من بنى كلاب ولم يجن ثمرة هذه الحرب غير الفاطميين والروم.

استقر رأى سعد الدولة الحمدانى بعد وقوفه على ما أصاب دولته من جراء المنازعات الداخلية على إزالة عوامل الخلاف بين جند الحمدانيين

---

(١) ابن الأثير: جـ ٩، ص ٢٩.

(٢) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، جـ ١، ص ٣٣ – ٣٤

(٣) Combridge Mediaeval History. Vol, 4 p. 147,

وتوحيد صفوفهم ، فكتب إلى غلامه بكجور التركى بأن يمتنع عن مناوأته . ويعده بإقطاعه الأراضى الممتدة بين حمص والرقة ، لكنه أبى إلا القتال ، فدارت الحرب بينهما سنة ٣٨١ . وحلت به الهزيمة وقتل ، واستولى سعد الدولة على أمواله[1]

لم تكن علاقة سعد الدولة الحمدانى بالخليفة العزيز بالله الفاطمى على شىء من الصفاء . فقد أساء سعد الدولة معاملة رسول هذا الخليفة — حين قدم اليه حاملا رسالة منه يحذره فيها من إلحاق الأذى بأبناء بكجور — وقال له : « عد إلى صاحبك وقل له : لست ممن تخفى أخبارك عنه وتمويهاتك عليه ، وما بك حاجة إلى تجهيز العساكر إلىّ ، فإنى سائر اليك ليكون اللقاء قريبا منك ، وخبرى يأتيك من الرملة[2] » . ولم يمض على ذلك غير قليل حتى توفى سعد الدولة سنة ٣٨١ هـ وخلفه ابنه سعيد الدولة أبو الفضائل — وكان قد عهد اليه قبل وفاته وأوصى لؤلؤ الخادم به[3] .

حاول الفاطميون الاستيلاء على حلب فى أيام سعيد الدولة ، فأسند الخليفة العزيز ولاية الشام إلى منجوتكين التركى ، وعهد اليه بقيادة الجيش الذى أعده لفتح حلب ، فسار منجوتكين إلى دمشق سنة ٣٨٣ هـ ، وبعد أن نظم شئونها خرج منها إلى حلب[4] .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، جـ ١ ص ٣٨ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل التاريخ دمشق ، جـ ١ ، ص ٣٨ — ٣٩ .

(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ، جـ ٣ ، ص ٢١٦ — ٢١٧ .

(٤) ابن الأثير : جـ ٩ ، ص ٣١ .

ولما علم سعيد الدولة بزحف الجند الفاطمي على الشام بقيادة منجوتكين، استنجد بامبراطور الروم باسيل الثاني، فأرسل هذا الامبراطور إلى قائده بأنطاكية يأمره بمحاربة الفاطميين وردهم عن حلب. وعلى الرغم من انتصار منجوتكين على الروم فانه لم يتمكن من دخول حلب، بل ارتد إلى دمشق بسبب نفاد الأقوات. غير أن الخليفة العزيز ما لبث أن أمره بالمسير إلى حلب وأرسل الجيوش لحصارها من جديد، كما أنفذ الأقوات إلى طرابلس [١].

رأى سعيد الدولة أبو الفضائل ولؤلؤ الخادم بعد أن اشتد الحصار عليهما بحلب أن يرسلا للمرة الثانية إلى امبراطور الروم يطلبان منه النجدة، كما خوفاه من سقوط حلب في يد الفاطميين بقولهما: «متى أخذت حلب، أخذت أنطاكية ومتى أخذت أنطاكية، أخذت قسطنطينية [٢]» فسار باسيل الثاني بنفسه إلى بلاد الشام ونزل على حصن شيزر على مقربة من حماه، فاستولى عليه، ثم سار إلى حمص ففتحها عنوة، وتابع سيره إلى طرابلس، فحاصرها. ولما تعذر عليه فتحها رحل عائداً إلى أنطاكية ومنها إلى القسطنطينية [٣].

عجز الفاطميون في عهد الخليفة العزيز بالله عن الاستيلاء على حلب. ذلك أن امبراطور الروم حين سار بقواته تلبية لدعوة سعيد

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٢٠.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١١٩ — ١٢٠.

(٣) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي ١٦٦، أبو المحاسن ج ٤ ص ١٢٠ - ١٢١

Cambridge Mediaeval History, Vol. 4, P. 156.

الدولة أبى الفضائل الحمدانى، أرسل لؤلؤ الخادم إلى منجوتكين القائد الفاطمى، يحذره من زحف الروم على شمال الشام بقوله: « إن الإسلام جامع بينى وبينك وأنا ناصح لكم، وقد وافاكم ملك الروم بجنوده، فخذوا لأنفسكم »، فعدل منجوتكين عن مهاجمة حلب وعاد إلى دمشق[1].

لما وقف العزيز على مدى تقدم الروم فى بلاد الشام، وبلغه عودة منجوتكين منهزما إلى دمشق، عظم ذلك عليه، واستقر رأيه على أن يسير بنفسه لفتح حلب وصد قوات الروم، فجهز حملة برية، كما أمر وزيره عيسى بن نسطورس بإنشاء أسطول يسير بحراً إلى طرابلس. ولم يكد يتم إعداد هذا الأسطول حتى اشتعلت فيه النيران فى ميناء المقس، وأحرقت منه ستة عشر مركبا. وكان لهذا الحادث أسوأ الأثر فى نفوس المصريين والمغاربة؛ فثاروا ببعض تجار الروم الذين وفدوا إلى البلاد المصرية قبل ذلك بقليل وقتلوا فريقا كبيرا منهم حين ثبت لديهم أنهم دبروا مؤامرة إحراقه. وما لبث العزيز أن قضى على الاضطرابات التى حدثت بالقاهرة بسبب إحراق الأسطول، وأشار على عيسى بن نسطورس بإنشاء أسطول آخر، فلبى هذا الوزير رغبته، وشرع فى جمع الأخشاب، وأمر الصناع بالإسراع فى إنجازه. ولما تم بناؤه، أبحر إلى أنطرطوس[3] لنجدة القائد الفاطمى منجوتكين، غير أن معظم سفنه لم تلبث أن تحطمت بالقرب من طرابلس على أثر هبوب عاصفة عليها،

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٢٠.

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٣١.

(٣) من أعمال طرابلس بلبنان وتقع على ساحل البحر.

وأسر الروم بعض رجال الأسطول المصري [١]. أما الحملة البرية، ... ج على رأسها الخليفة العزيز إلى بلبيس في طريقه إلى بلاد الشام، لكن المرض اشتد عليه فجأة، فتخلف بها وتوفى سنة ٣٨٦هـ [٢].

على الرغم من أن سعيد الدولة أبا الفضائل الحمداني قد نجح في ابعاد خطر الغزو الفاطمي عن بلاده في عهد العزيز بالله، فان الأمور لم تستقر له في حلب. فقد واجه منافسة مولاه لؤلؤ الذي طمع في الاستئثار بحكم حلب وقتله وانتزع الولاية لنفسه من ولديه أبي الحسن على وأبي المعالي شريف وحكم باسمهما، ولم تقف أطماع لؤلؤ عند هذا الحد، بل عمل على نقل الحكم إلى أسرته، فأرسل ولدى سعيد الدولة مع سائر أفراد البيت الحمداني إلى القاهرة [٣]. وأخذ يتقرب إلى الفاطميين ليتقي خصومتهم، فأمر بحذف اسم الخليفة العباسي من الخطبة، وأعلن طاعته للخليفة الحاكم بأمر الله، وأقام الدعوة له فترة من الوقت [٤].

لما توفى لؤلؤ سنة ٣٩٩هـ، خلفه ابنه منصور، فاعترف بسلطان الخليفة الحاكم بأمر الله، وأقام الدعوة له بحلب سنة ٤٠٢هـ، ولقبه هذا الخليفة مرتضى الدولة [٥]، وبذلك امتد نفوذ الفاطميين إلى حلب مما مهد لهم أمر القضاء على سلطة الحمدانيين فيها [٦].

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي، ص ١٧٨، المقريزي: خطط، ج ٢، ص ١٩٥ — ١٩٦.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٢٢.

(٣) المسكين بن العميد: تاريخ المسلمين، ص ٢٥٦.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج ٤. ص ٢٧١

(٥) ابن الأثير: ج ١، ص ٧٨.

(٦) حسن إبراهيم: تاريخ الاسلام السياسي. ج ٣، ص ٢١٧.

لم يتمتع منصور بن لؤلؤ طويلا بإمارة حلب؛ فقد عمل أهالى هذه المدينة على التخلص منه لكثرة عسفه بهم، كما قامت الحرب بينه وبين بنى كلاب. وكان قد وعدهم بتوزيع بعض الإقطاعات عليهم، لكنه ماطلهم ولم يف بوعوده لهم. ولما عجز منصور عن الاحتفاظ بسلطانه فى حلب، رحل عنها إلى أنطاكية، فسهل بذلك على نواب الحاكم دخول حلب والإستيلاء عليها، وظلوا يتناوبون الحكم فيها حتى أسند هذا الخليفة ولايتها سنة ٤٠٧ هـ إلى أمير من بنى حمدان يدعى عزيز الملك فاتك، ولقبه أمير الأمراء [1]، فظل يلى أمورها حتى توفى الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ وخلفه ابنه الظاهر، فاستأثر فى عهده بالحكم فى حلب، غير أنه لم يلبث أن قتل على يد غلام له يسمى بدر الذى استولى على حلب ثم سلمها فيما بعد إلى الخليفة الظاهر، وبذلك زال سلطان الحمدانيين فى الشام.

لم يتيسر للفاطميين توطيد سلطانهم فى حلب فى عهـــد الخليفة الظاهر، فقد ظهر مناوىء جديد لهم، وهو صالح بن مرداس أمير بنى كلاب الذى تمكن من الاستيلاء على هذه المدينة سنة ٤١٤ هـ من يد حكامها الفاطميين، كما دخل قلعتها بعد حصار طويل [2]؛ وظل يتولى حكمها حتى سنة ٤٢٠ حيث أعد له الخليفة الظاهر جيشا كبيرا لقتاله وقتال بعض أمراء العرب بالشام الذين تحالفوا معه ضد الفاطميين على اقتسام بلاد الشام فيما بينهم. وقد تمكن الجيش الفاطمى من التغلب

(١) ابن الأثير : جـ ٩، ص ٧٩
(٢) ابن الأثير : جـ ٩، ص ٧٩.
(٣) Hitti, History of Syria P. 580.

على قوات هؤلاء الحلفاء فى معركة دارت بالقرب من طبرية ، قتل فيها صالح بن مرداس [(١)] ، وبذلك أتيح للفاطميين استعادة نفوذهم فى حلب . على أن هذا النفوذ لم يكن مستقرا بسبب تطلع المرداسيين إلى استرداد هذه المدينة . وقد تجلت مطامعهم فى ولايتها فيما قام به نصر بن صالح ابن مرداس الذى جمع قواته وهاجم حلب واستولى عليها من يد الفاطميين ، واتخذ لنفسه لقب شبل الدولة [(٢)] ، وما زال نصر يحكم حلب إلى أن ولى الخلافة المستنصر بالله الفاطمى ، فعهد إلى القائد التركى أنوشتكين الدزبرى بالزحف إلى حلب واستردادها ، فسار إليها سنة ٤٢٩ هـ ، والتقى بنصر عند بلدة حماة ، وأوقع به الهزيمة وقتله ، وتقلد ولاية حلب بدلا منه ، وظل يلى أمورها إلى أن توفى سنة ٤٣٣ [(٣)] .

كان ثمال بن صالح بن مرداس بالرحبة إذ ذاك . ولما بلغه اضطراب الأمور فى حلب ، عول على الخروج إليها ، ثم حاصرها واستولى عليها سنة ٤٣٤ هـ وتقلد زمام الحكم فيها ، غير أنه لم يتمتع بالهدوء والاستقرار ، فقد زحف إليه الجنود من مصر بقيادة أبى عبد الله بن ناصر الدولة ابن حمدان سنة ٤٤٠ هـ فخرج إليهم ثمال وقاتلهم واضطروا إلى العودة إلى مصر [(٤)] .

لم تزل الجنود المصرية توالى زحفها على حلب وتضيق عليها

---

(١) ابن العديم الحلبى : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، ص ٢٢٧ .

(٢) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ٢٧٢ .

(٣) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٧٩ .

(٤) ابن الأثير : ج ٩ ، ص ٧٩ — ٨٠ . ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ٢٧٣

الحصار حتى سئم ثمال بن صالح إمارتها وعجز عن القيام بشئونها . وبعث الى المستنصر بمصر يطلب الصلح . فصالحه على أن ينزل عن حلب ، وعهد الخليفة الفاطمى إلى مكين الدولة الحسن بن ملهم بولاية حلب سنة ٤٤٩ هـ(١) .

لم يكد يمضى عامان على تقلد ابن ملهم ولاية حلب حتى ثار عليه أهلها وبعثوا فى طلب محمود بن نصر بن صالح بن مرداس ، فقدم عليهم فى منتصف سنة ٤٥٢ هـ واشترك معهم فى محاصرة ابن ملهم . ولما علم بذلك المستنصر ، أرسل إليه نجدة تحت قيادة ناصر الدولة الحسين بن حسن ابن حمدان والى دمشق ، فدارت بينه وبين محمود بن نصر بن صالح بن مرداس عدة معارك انتهت بانهزامه واستعادة محمود ولاية حلب ، وعاد ابن ملهم وابن حمدان إلى مصر(١) .

على الرغم من أن أمراء بنى مرداس قد بذلوا جهدا كبيرا فى سبيل الاحتفاظ بولاية حلب ، فإنهم عجزوا عن توطيد نفوذهم فيها لأنهم كانوا مهددين من ناحية الخلافة الفاطمية(٢) ، كما أنه كان لضعفهم أثر كبير فى عدم استقرار الأمور فى ولايتهم وعلى الأخص منذ بداية النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى . وقد عجلت هذه الحالة بزوال حكم المرداسيين فى حلب بعد أن ظلوا يحكمونها ما يقرب من ستين عاما .

---

(١) ابن الأثير : جـ ٩ ص ٨٠ .

(٢) ابن خلدون : العبر ، جـ ٤ ، ص ٢٧٣ — ٢٧٤

(٣) Lammens, La Syrie, Précis Historique Tome I P. 154.

على أن الفاطميين وإن كانوا قد نجحوا فى بسط سيادتهم على حلب بعد أن زالت سلطة الحمدانيين فيها ، فانه لم يتيسر لهم ضمها إلى حوزتهم بعد أن حكمها أمراء من بنى مرادس ، بل ظلوا فى نزاع مع هؤلاء الأمراء دون أن يتمكنوا من القضاء على سلطتهم .

وقد تعرضت حلب فى أواخر القرن الخامس الهجرى لهجوم السلاجقة وبعض أمراء العرب ، فسار إليها شرف الدولة مسلم بن قريش ابن بدران العقيلى صاحب الموصل وحاصر قلعتها واستولى عليها من ولاتها المرادسيين سنة ٤٧٣ ه[١] ، ثم أرسل إلى ملكشاه سلطان السلاجقة ليقره على نيابة حلب على أن يؤدى إليه مبلغا معيناً من المال ، فأجاب السلطان طلبه[٢] ؛ وبذلك قضى على سلطان المرداسيين .

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٣٩ .
(٢) المكين بن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٢٨٠ — ٢٨٢ ، ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .

٣ — ضعف النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام
فى أواخر القرن الخامس الهجرى

كان نفوذ الفاطميين فى بلاد الشام مرتبطا بقوتهم العسكرية ، فاذا ماضعفت قواتهم هناك ، قام الأمراء المحليون بالعمل على توطيد استقلالهم الذاتى كما فعل بنو الجراح بفلسطين و بنو مرداس فى حلب . وقد وجهت الخلافة الفاطمية عنايتها إلى القضاء على مناوأة هؤلاء الأمراء والعمل على توطيد سلطانها ببلاد الشام . وليس من شك فى أن الاضطرابات التى أثارها بنو الجراح فى فلسطين وعدم استقرار الأمور فى حلب فى عهد بنى مرداس ، أتاح كل ذلك الفرصة أمام السلاجقة ليظهروا على مسرح السياسة فى بلاد الشام ويقضوا على النفوذ الفاطمى فيها .

أخذ نفوذ السلاجقة فى الازدياد منذ عهد طغرلبك الذى تمكن من جمع صفوفهم و بسط سلطانهم على جهات واسعة من الدولة الاسلامية شملت مرو ونيسابور وكرمان وأذربيجان وجرجان وطبرستان .

---

(١) يرجع أصل السلاجقة إلى إحدى قبائل الغز التركية ، وكانوا قوما من البدو يسكنون إقليم تركستان ، وقد قرب ملك هـذا الإقليم جدهم سلجوق إليه ، فظل فى خدمته حتى وصل إليه نبأ تدبيره مؤامرة للتخلص منه . فهاجر مع قبيلته إلى بخارى ، حيث دخل هو وأتباعه فى الاســلام على مبادىء المذهب السنى وأصبحوا من المتحمسين له .

المكين بن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٢٦٧ ، المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ١ ، القسم الأول ، ص ٣٠ — ٣١ .

كذلك عمل طغرلبك على توثيق الروابط بين السلاجقة والخليفة العباسى القائم بأمر الله ؛ فلما استنجد به هذا الخليفة لينقذه من فتنة أبى الحارث أرسلان البساسيرى ، أجاب طلبه . فسار إلى بغداد وقضى على هذه الفتنة وأعاد إقامة الخطبة للخليفة العباسى سنة ٤٥١ هـ ، غير أنه لم يلبث أن استأثر بالسلطة دونه ، وسار على هذه السياسة من جاء بعده من سلاطين السلاجقة .

وجه السلاجقة اهتمامهم بعد أن استأثروا بالنفوذ فى العراق إلى استعادة ما فقدته الدولة العباسية من البلاد ، فأرسل ألب أرسلان سنة ٤٦٢ هـ إلى محمود بن صالح بن مرداس أمير حلب ، يطلب منه إقامة الدعوة للخليفة العباسى بدلا من الخليفة الفاطمى ، فأجابه إلى طلبه ، ثم سار بنفسه إلى حلب فى العام التالى وحاصرها شهرا ، فخرج اليه أميرها فأكرمه وأعاده الى ولايته [1] ، واضطر ألب أرسلان الى العودة الى بلاده حين وصله أن الروم اخترقوا بلاد أرمينية يريدون خراسان . وفى سنة ٤٦٥ هـ ، عهد السلطان ملكشاه إلى أتسز التركمانى بالاستيلاء على بلاد الشام . ففتح الرملة وبيت المقدس ، ثم يمم السير الى دمشق ؛ غير أن جيوش الفاطميين سرعان ما ردته على أعقابه [2] ، لكنه لم يلبث بعد ذلك أن عول على محاصرتها سنة ٤٦٧ هـ ، وأخذ يشدد عليها الحصار حتى تمكن من فتحها ، ثم حذف اسم المستنصر بالله الفاطمى من

---

(١) ابن الأثير : جـ ١٠ ، ص ٢٢

(٢) ابن الأثير : جـ ١٠ ، ص ٢٣ .

الخطبة ، وأحل محله اسم الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله ،[١] ، كما منع الأذان بحى على خير العمل . وكان لعمله هذا أحسن الأثر فى نفوس أهالى دمشق[٢] .

ولما استقر الأمر للقائد التركمانى أتسز فى بلاد الشام خشى أن يعاود الفاطميون مهاجمته ، فجهز جيشا من التركمان والعرب والترك وسار قاصداً مصر سنة ٤٦٩ هـ بعد أن أغراه بفتحها ابن يلدكوز الذى احتمى به على أثر قدوم بدر الجمالى إلى مصر ، وأهدى إليه بعض التحف التى استولى عليها أبوه من خزائن المستنصر بالله الفاطمى[٣] .

وقد توغل أتسز بقواته فى البلاد المصرية دون أن يصادف مقاومة تذكر ، وعسكر خمسين يوما فى الدلتا بدلا من أن يسير إلى القاهرة وأساء أصحابه معاملة الأهالى وأخذوا أموالهم ؛ فأرسل رؤساء القرى المصرية إلى الخليفة المستنصر بالله يشكون إليه ما نزل بهم[٤] .

لم يكن بدر الجمالى فى الوقت الذى زحف فيه أتسز على مصر مستعداً لمواجهة حملته لانشغاله باخماد بعض الثورات فى بلاد الصعيد ، فجنَّدَ جميع الرجال القادرين على حمل السلاح ، ودعا ثلاثة آلاف حاج كانوا متأهبين للسفر إلى بلاد الحجاز لمعاونته فى قتال السلاجقة فأجابوا

---

(١) Stanley Lane-Poole, a History of Egypt in the Middle ages. P. 161

(٢) ابن خلدون : ج ٤ ، ص ٦٥ ، Hitti History of Syria pp. 588-589

(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٢٤

(٤) ابن الأثير ج ١ ، ص ٢٦

دعوته وتخلفوا عن السفر . وأصبح جيش بدر الجمالى يضم كثيراً من العرب وأهالى البلاد . ولما دار القتال بين الفريقين استطاع بدر الجمالى بمهارته أن يستميل إلى جانبه فريقاً من السلاجقة . كما فعل المعز من قبل مع القرامطة ، وكان ذلك مما عجّل الهزيمة بجيشهم ، وفرّ أتسز إلى غزة وأقام بالرملة حتى لحق به من بقى من عسكره ، ثم رحل إلى دمشق[1] .

أعلنت بعض المدن الرئيسية فى بلاد الشام على أثر تلك الهزيمة التى لحقت بأتسز ولاءها من جديد للخلافة الفاطمية . وقد شجع ذلك بدر الجمالى على العمل لاستعادة سلطان الفاطميين بتلك البلاد . فأنفذ جيشاً بقيادة نصر الدولة إلى دمشق ، فحاصرها حصاراً شديداً حتى اضطر أتسز إلى طلب النجدة من تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان — وكان إذ ذاك يحاصر حلب — فسار تتش إلى دمشق . ولم يكد يقترب منها حتى رحل عنها عسكر مصر[2] .

ولما تقابل تتش مع أتسز عند سور دمشق ، أنكر عليه تأخره فى الخروج للقائه ، ثم ما لبث أن قبض عليه وقتله . واستولى على دمشق سنة ٤٧١ هـ وأحسن معاملة أهلها[3] ، وصار يتولى بمفرده جميع الأمور فى بلاد الشام ؛ غير أن الحالة لم تستقر له طويلا بتلك البلاد ؛

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٣٥ — ٣٦ ، ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٣٥

(٢) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٣٨ . أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

(٣) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٣٨ .

فحاول بدر الجمالى أن يسترد دمشق سنة ٤٧٨ هـ، فسار إليها على رأس حملة، وحاصرها حصاراً شديداً كما دار بينه وبين صاحبها تاج الدولة تتش قتال، غير أنه لم يتمكن من التغلب عليه، ورحل عائداً إلى مصر [1].
وما زال بدر الجمالى يوجه اهتمامه إلى استعادة النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام حتى تمكن سنة ٤٨٢ هـ من الاستيلاء على معظم مدن الشام الساحلية. على أن الفاطميين لم يتمكنوا من الاحتفاظ بسيطرتهم على هذه المدن بسبب تطلع السلاجقة إلى بسط سلطانهم عليها؛ ففى سنة ٤٨٥ هـ. أمر السلطان ملكشاه نوابه بحلب والرها بالسير مع قواتهم لمعاونة أخيه تاج الدولة تتش فى الاستيلاء على ما للخليفة المستنصر بالله الفاطمى من بلاد بساحل الشام، فساروا لنجدته، واستطاع تتش بمساعدتهم أن يستولى على حمص وقلعتى عرقة وأفامية [2] (Apamea)،

على الرغم من أن تاج الدولة تتش قد بسط سلطانه على معظم بلاد الشام فإنه لم يوجه جهوده للعمل على توطيد نفوذه بهذه البلاد — مع أن الظروف كانت مهيأة له وخاصة من ناحية الفاطميين الذين حال ضعفهم بسبب المنازعات الداخلية دون نجاحهم فى استرداد سيادتهم على بلاد الشام التى كانت فى حوزتهم —، فقد امتدت أطماع تتش إلى بلاد الجزيرة وفارس وتغلب على كثير منها مما أدى إلى قيام

(١) ابن الأثير: ج ١٠، ص ٤٩.

(٢) ابن الأثير: ج ١٠، ص ٧٠، أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر، ج ٢، ص ٩٧
أفامية: كورة من كور حمص، تقع إلى الشمال من حماه وجنوب معرة النعمان

الخلاف بينه وبين ابن أخيه بركياروق سنة ٤٨٦ هـ . وقد تطور هذا الخلاف إلى نشوب الحرب بين تتش وقوات بركياروق ، انتهى الأمر فيها بهزيمة تتش وقتله سنة ٤٨٨ هـ(١) .

اقتسم بلاد الشام بعد مقتل تتش ابناه رضوان ودقاق ؛ فاستقل الأول بولاية حلب ، وانفرد الثانى بدمشق لكنهما لم يكونا على وفاق ، فقد دب الخلاف والتنافس بينهما ؛ فسار رضوان إلى دمشق طمعاً فى الاستيلاء عليها لكنه عجز عن مهاجمتها لحصانتها ومناعتها ، كما لم يتمكن من الاستيلاء على بيت المقدس . أما دقاق فإنه رأى أن يسير إلى حلب لمحاصرة أخيه رداً على فعله ؛ والتقى الفريقان بقنسرين حيث دارت معركة هزم فيها دقاق الذى ما لبث أن اتفق مع أخيه رضوان سنة ٤٨٩ هـ على أن تقام الخطبة باسميهما فى دمشق(٢) .

أما عن الحالة الداخلية فى مصر ، فلم تكن إذ ذاك مستقرة ، فقد اضطربت فيها الأمور بعد تولية المستعلى بالخلافة ، ويرجع السبب فى ذلك إلى ما قام به الوزير الأفضل بن بدر الجمالى من إقصاء نزار بن المستنصر عن الخلافة رغم أحقيته لها ؛ فخرج أهالى الاسكندرية على طاعة الخليفة الفاطمى الجديد وانحازوا إلى نزار بعد أن قدم إليهم وبايعوه بالخلافة ؛ غير أن الأفضل بن بدر الجمالى ما لبث أن تمكن

(١) ابن الأثير : جـ ١٠ ، ص ٨٥ .

(٢) ابن الأثير : جـ ١٠ ، ص ٩٣ . أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٢ ، ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

من القضاء عليه وعلى من آزره في ثورته في أواخر سنة ٤٨٨ هـ[1]

على الرغم من أن الحكومة الفاطمية في مصر في أوائل عهد المستعلي بالله شغلت بضبط الأمور في البلاد عن مواصلة جهودها لاسترداد نفوذها في بلاد الشام، فإن الخلاف بين نواب السلاجقة في هذه البلاد وحالة الضعف التي تجلت في أيامهم، لم يكن كل ذلك خافياً عنها، فرأى الفاطميون أن ينتهزوا هذه الفرصة ليحاولوا من جديد إعادة سيطرتهم على ما فقدوه من مدن الشام. فسار الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٤٨٩ هـ على رأس حملة إلى بيت المقدس – وكان يلي هذه المدينة إذ ذاك إيلغازي وسقمان ابنا الأمير أرتق –، فالتمس منهما تسليمه القدس من غير حرب. فلم يجيباه إلى طلبه[2] فحاصر المدينة ونصب على أسوارها المجانيق، واضطر أهل القدس إلى طلب الأمان، فأمنهم وفتحوا له أحد أبوابها وبذلك تمكن الأفضل من دخولها والاستيلاء عليها، ورأى كل من سقمان وأخيه إلغازي أن يرحلا عنها: فمضى الأول إلى الرها. أما الثاني فسار إلى بغداد[3].

أدى النزاع بين الفاطميين والسلاجقة على نشر نفوذهم في بلاد الشام إلى عدم استقرار الأمور في هذه البلاد وضعف الجبهة الإسلامية أمام الغزو الصليبي. فقد زحف الصليبيون على أنطاكية بقيادة

---

(١) ابن ميسر تاريخ مصر، ص ٢٥ – ٢٧. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة. جـ ٥، ص ١٤٤ – ١٤٥.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٥

(٣) أبو المحاسن النجوم الزاهرة، جـ ٥، ص ١٥٩

بوهمند النرمندى فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، ورأوا أن يستغلوا الفرقة بين الأمراء المسلمين فى بلاد الشام ، فأرسلوا إلى أميرى حلب ودمشق يطلبون منهما عدم التعرض لهم ، كما ادعوا بأنهم لا يقصدون غير البلاد التى كانت بيد الروم [١]. ولما وقف رضوان أمير حلب على رغبة الصليبيين فى إثارة النزاع بين القوى الإسلامية ليتيسر لهم تحقيق غرضهم ، سارع إلى نجدة أمير أنطاكية وانضم إليه سقمان بن أرتق وقوات من شيزر [٢] وحماه وحمص . غير أن المحاولات التى بذلها أمراء المسلمين ببلاد الشام لإنقاذ أنطاكية باءت بالفشل وسقطت المدينة فى يد الصليبيين سنة ٤٩١ [٣] هـ (٣ يونية ١٠٩٨ م)

لما وصل إلى الحكومة الفاطمية فى مصر نبأ هجوم الصليبيين على أنطاكية ، رأت أن تبذل جهدها لمنع زحفهم على بيت المقدس ، فأنفذ الوزير الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٤٩٢ (١٠٩٨ م) سفارة إلى الصليبيين للتفاوض فى عقد اتفاق معهم يتضمن أن ينفردوا بأنطاكية وأن تستقل مصر ببيت المقدس على أن يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين وتكون لهم الحرية فى أداء شعائرهم الدينية على ألا تزيد مدة إقامتهم بها عن شهر واحد وألا يدخلوها بسيوفهم. [٤]

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩٥

(٢) تقع على مقربة من معرة النعمان بشمال حماه .

(٣) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٢١٠ .

(٤) Cuillaume de Tyre (R. Hist Occ. Crois.) T. I. P. 191 et Seq.
راجع كتاب : الحرب الصليبية الأولى لحسن حبشى ، ص ٥٣ — ٩٤ .

لم تؤد سفارة الأفضل بن بدر الجمالى إلى الصليبيين إلى عدولهم عن تحقيق سياستهم فى الاستيلاء على بيت المقدس، بل كان من أثرها أن وقف الصليبيون على مدى الخلاف السائد بين الفاطميين ونواب السلاجقة ببلاد الشام، ومن ثم استقر رأيهم بعد استيلائهم على أنطاكية على إرسال حملة لفتح بيت المقدس. وقد استولى الصليبيون أثناء سيرهم إلى هذه المدينة على معرة النعمان[١]، كما عمل أمير شيزر على تأمين طريقهم وتزويدهم بما يحتاجون إليه درءاً لخطرهم[٢].

كانت بيت المقدس فى الوقت الذى تقدم فيه الصليبيون لمهاجمتها خاضعة للفاطميين ويلى حكمها نائب من قبلهم يدعى افتخار الدولة[٣]، فلما شرع الصليبيون فى فتح هذه المدينة لقوا مقاومة فى بادىء الأمر من الحامية الاسلامية، غير أن جودفروى قائد الحملة الصليبية ما لبث أن عثر على منفذ للمدينة لم يهتم المسلمون بتحصينه، فدخل منه مع بعض أتباعه من الفدائيين. وبذلك تيسر لهم فتح أبوابها، فاضطر المسلمون إلى الاعتصام بالمسجد الأقصى، فتعقبهم الصليبيون ونكلوا بهم. ولم يجد حاكمها الفاطمى افتخار الدولة بدأ من الاستسلام. وتعهد هو وقواته للصليبيين بالرحيل عنها إلى مصر[٤].

---

(١) ابن الأثير : ج ١٠ ، ص ٩٦ .

(٢) حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، ص ٧٤ .

(٣) ابن الأثير : ج ١٠ . ص ٩٨ .

(٤) ابن الأثير : ج ١٠ . ص ٩٨ . حسن حبشى : *الحرب الصليبية الأولى* ، ص ٨٣ – ٨٥

لم يقف الفاطميون إزاء هجوم الصليبيين على بلاد الشام وزحفهم على بيت المقدس مكتوفى اليدين وخاصة بعد أن وصلهم خبر دخولهم هذه المدينة واستيلائهم عليها ومحاولتهم أخذ ما تبقى لهم من المدن الساحلية وعجز أمراء السلاجقة عن الوقوف فى وجههم ، فأعدوا حملة فى رمضان سنة ٤٩٢ هـ لاسترداد بيت المقدس. وقد خرج الأفضل بن بدر الجمالى وزير الخليفة المستعلى بالله على رأس الجيش الفاطمى ، وأقام هذا الوزير بعسقلان فى انتظار النجدات التى وعده بها العرب[١] ، وأرسل إلى الصليبيين ينكر عليهم ما فعلوه ويتهددهم[٢]. على أن القوات الفاطمية ما لبثت أن فوجئت بهجوم الصليبيين ، واشتبك الفريقان فى عدة معارك انتهت بهزيمة الجند الفاطمى وتراجعهم تدريجياً ، وعاد الأفضل مع خواصه إلى مصر[٣].

تجلى ضعف النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام على أثر النجاح الذى أحرزه الصليبيون فى زحفهم على هذه البلاد وتأسيسهم إمارتى أنطاكية وبيت المقدس. وقد ظهرت بوادر هذا الضعف منذ حاول السلاجقة إقصاء الفاطميين عن بلاد الشام.

على أن السلاجقة وإن كانوا قد أحرزوا بعض النجاح فى بسط

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧ ، أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٥ ، ص ١٥٠

(٢) ابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٩٩

(٣) المقريزى : خطط ، ج ١ ، ص ٣٥٦ . أبو المحاسن : النجوم : الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤٩

سيطرتهم على بعض مدن الشام التى كانت فى حوزة الفاطميين فإن الخلاف الذى قام بين نوابهم أضعف من سلطتهم ، كما أن التنافس بينهم وبين الفاطميين على امتلاك بلاد الشام كان من أكبر العوامل التى عاونت الصليبيين على الاستقرار فى هذه البلاد [١] .

ومما لا شك فيه أن الخلافة الفاطمية فى أواخر القرن الخامس الهجرى لم تكن فى حالة تساعدها على استعادة مكانتها فى بلاد الشام ، فقد أصبحت مصر من الضعف بسبب ما سادها من الاضطرابات ، وما منيت به من منازعات بين طائفتى النزارية [٢] والمستعلية بحيث تعذر عليها الاحتفاظ بما تبقى لها من سلطان على بلاد الشام . يؤيد ذلك ما قاله المقريزى [٣] عن الخليفة المستعلى بالله الفاطمى (٤٨٧ – ٤٩٥ هـ) « وفى أيامه اختلت الدولة وانقطعت الدعوة من أكثر مدن الشام فإنها صارت بين الأتراك والفرنج » .

---

(١) Gaston Wiet, Précis de L'Histoire de L'Egypte Vol.II.P. 186

(٢) كانت النزارية تدعى أن المستنصر بالله الفاطمى أوصى لابنه الأكبر نزار بالخلافة من بعده . أما المستعلية ، فادعت أنه أوصى بها لابنه أبى القاسم أحمد الذى لقب بالمستعلى بالله (ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٣٥ — ٣٧) .

(٣) خطط ، ج ١ ، ص ٣٥٦ — ٣٥٧ .

الباب الثاني

الدعوة الفاطمية فى بلاد العراق

---

١ — سياسة الفاطميين فى نشر دعوتهم بمدن العراق

٢ — حركة البساسيرى فى العراق

٣ — زوال النفوذ الفاطمى ببلاد العراق بعد دخول السلاجقة بغداد

الباب الثاني

الدعوة الفاطمية فى بلاد العراق

---

١ ــ سياسة الفاطميين فى نشر دعوتهم بمدن العراق

كان لظهور القرامطة فى بلاد العراق السفلى والتشابه بين دعوتهم ودعوة الإسماعيلية أكبر الأثر فى جذب كثير من أهالى الولايات العباسية إلى اعتناق المذهب الإسماعيلى [1] ؛ فصارت بلاد السواد [2] تموج بأتباع أئمة الاسماعيلية الذين اتخذوا سلمية [3] دار هجرة منذ عهد الخليفة المأمون العباسى ، كما أصبح لهم أنصار فى بغداد نفسها ، بل إن عبيد الله (المهدى) اتخذ دعاة له بهذه المدينة كانوا يمدونه بأخبار

---

(١) عرف بذلك نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق . وكان أتباعه يعرفون بالاسماعيلية وهم فرقة من الشيعة تعتقد أن الإمامة انتقلت بعد النبى صلى الله عليه وسلم إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ثم إلى ابنه الحسن . ثم إلى أخيه الحسين، ثم تنقلت فى بنى الحسين إلى جعفر الصادق ، ويدعون ان الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه اسماعيل ثم تنقلت فى بنيه .

(القلقشندى : صبح الأعشى . جـ ١ . ص ١١٩ — ١٢٠)

(٢) السواد يراد به رستاق العراق وضياعها التى افتتحها المسلمون فى عهد عمر ابن الخطاب رضى الله عنه . وقد سمى بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار

(ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ١٥٩)

(٣) بلدة فى ناحية البرية من أعمال حماة (ياقوت : معجم البلدان . جـ ٥ . ص ١٩٣) .

العباسيين. وقد استطاع بفضل دعاته المقيمين ببغداد وبلاد الشام التغلب على الصعوبات التى تعرض لها فى طريقه من سلمية إلى بلاد المغرب

قام دعاة الفاطميين فى بغداد بعد قيام الخلافة الفاطمية فى بلاد المغرب بنشاط كبير فى نشر دعوتهم ؛ وليس أدل على ذلك من اتجاه ميول بعض كبار رجال الدولة العباسية إلى ما ادعاه الفاطميون من حق فى الخلافة والاعتراف بإمامة المهدى فذكر مسكويه(٢) أن يوسف بن أبى الساج — أحد قواد العباسيين فى عهد الخليفة المقتدر — أخبر كاتبه محمد بن خلف أنه متى جمع خراج واسط والكوفة وسقى الفرات عن سنة ٣١٤ هـ ، شق عصا طاعة الخليفة العباسى وأظهر الدعوة للمهدى . ثم دعا الناس إلى الدخول فيما دخل فيه ، وسار إلى بغداد ؛ فكتب محمد بن خلف بذلك كله إلى نصر الحاجب ، فأوصله إلى مسامع الخليفة العباسى » .

على أنه يستدل مما أورده ابن الأثير (٣) عن اتصال القائد العباسى يوسف بن أبى الساج بالفاطميين أن كاتبه محمد بن خلف هو الذى اتهمه بذلك طمعا فى تقلد الوزارة : فقال : « إن محمد بن خلف النيرمانى عظم شأنه وكثر ماله فحدث نفسه بوزارة الخليفة ، فكتب إلى نصر الحاجب يخطب الوزارة ويسعى بابن أبى الساج ويقول له إنه قرمطي يعتقد

(١) حسن ابراهيم وطه شرف : كتاب «عبيد الله المهدى» ص ١٢٥-١٢٨ ، ٣٠٧

(٢) تجارب الأمم ؛ جـ ١ ، ص ١٦٧ — ١٦٨ . حسن ابراهيم الفاطميون فى مصر ، ص ٧٢ — ٧٣

(٣) الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ، ص ٥٤

إمامة العلوى الذى بإفريقية وأنى ناظرته على ذلك فلم يرجع عن ... نه لا يسير إلى قتال أبى طاهر القرمطى وإنما يأخذ المال بهذا السبب ويقوى به على قصد حضرة السلطان وإزالة الخلافة عن بنى العباس ».

وعلى الرغم من أنه ليس فيما ذكره كل من مسكويه وابن الأثير عن موقف يوسف بن أبى الساج إزاء الفاطميين ما يدل على محاولته الخروج على طاعة الخليفة العباسى ، فإن هذا الأمر لا يمنعنا من أن نرجح ميله إلى الدخول فى دعوة عبيد الله المهدى وإن كانت الفرصة لم تحن بعد لتحقيق هذه الرغبة . يؤيد ذلك ما أشار إليه المقريزى [١] من أن يوسف بن أبى الساج ، بعث إلى عبيد الله المهدى رسالة يعترف فيها بإمامته ويعلن استعداده لمعاونته [٢] .

كذلك بلغ من نفوذ دعاة الفاطميين ... ذلك العهد أن نجحوا فى جذب كثيرين من أهالى العراق إلى اعتناق المذهب الاسماعيلى ، ويتضح لنا ذلك من هذا الحديث الذى دار بين على بن عيسى وزير الخليفة العباسى المقتدر بالله وبين أحد الاسماعيلية من أهل العراق. يقول ابن الأثير [٣] :

« جاء إنسان إلى على بن عيسى وأخبره أن فى جيرانه رجلا من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر [٤] بالأخبار ، فأحضره وسأله

(١) المقفى الكبير : ورقة ٢٢٣ ب

(٢) حسن ابراهيم : الفاطميون فى مصر ، ص ٥٤

(٣) الكامل فى التاريخ : ج ٨ ، ص ٧٤

(٤) تقلد أبو طاهر سليمان الجنابى زمام الحكم فى دولة القرامطة ببلاد البحرين سنة ٣٠٥ هـ . وكان طموحا إلى المجد والعظمة ، فقضى السنوات الأولى من حكمه =

واعترف ، وقال : ما صحبت أبا طاهر إلا لما صح عندى أنه على الحق وأنت وصاحبك (أى الوزير والخليفة) كفار ، تأخذون ماليس لكم ، ولا بد لله من حجة فى أرضه ، وإمامنا المهدى فلان بن فلان بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب . ولسنا كالرافضة والاثناعشرية الذين يقولون بجهلهم إن لهم إماماً ينتظرونه ويكذب بعضهم البعض . . . » فقال له على بن عيسى : قد خالطت عسكرنا وعرفتهم ، فمن فيهم على مذهبك ؟ فقال : وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة كيف تطمع منى أنى أسلم قوما مؤمنين إلى قوم كافرين يقتلونهم ؟ لا أفعل ذلك . »

كان لضعف سلطة الخلفاء العباسيين الذى تجلى منذ بداية القرن الرابع الهجرى بسبب استفحال نفوذ القواد من الأتراك واستقلال الأمراء بولاياتهم واستبداد البويهيين[1] بأمور الخلافة أثره فى تشجيع

= ينظم شئون دولته ، ويعد العدة للسيطرة على جزيرة العرب . وقد تجلى فى عهده قيام العلاقات الودية بين القرامطة والفاطميين ببلاد المغرب واتحادهم فى سياستهم العدائية إزاء العباسيين .

(راجع كتاب النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب للمؤلف ص ٣٤ — ٣٥)

(١) اشتهر من بين أهالى بلاد الديلم البويهيون . وكانوا جنودا مغامرين من أصل فارسى ، وقد رفعوا أنفسهم بالدهاء والمكر وكانوا لايترددون ولا يخجلون من ترك خدمة قائد إلى خدمة آخر يدفع لهم أجرا أكثر من الأول ؛ فارتقى على بن بويه وأخوه الحسن إلى مرتبة الأمراء فى جيش « ماكان » الديلمى ، ولما لحقت به الهزيمة ، انتقلا إلى خدمة مرداويج بن زيار الديلمى ، فولى على بن بويه بلاد الكرج (إلى الجنوب الشرقى من همدان) =

الفاطميين على إرسال دعاتهم إلى بلاد الدولة العباسية لنشر الدعوة لهم ، كما حفزهم إلى العمل على تقويض دعائم الخلافة العباسية وانتزاع زعامة الإسلام منها .

وقد كشف المعز لدين الله الفاطمي عن سياسته التي ترمي إلى بسط

= على أن الجو لم يصف لعلى بن بويه ، فقد عول مرداويج على طرده من بلاد الكرج وأرسل جيشا كبيرا لإخراجه منها ، فسار على إلى أرجان (إحدى كورفارس) واحتلها سنة ٣٢١ هـ ، ثم دخل شيراز فى العام التالى وتمكن أخوه أحمد بن بويه من احتلال كرمان .

لما توفى مرداويج سنة ٣٢٣ هـ ، احتل البويهيون أصفهان والرى واستمروا فى توسعهم نحو الغرب . فدخل أحمد بن بويه الأهواز سنة ٣٢٦ هـ واحتفظ بها رغم المقاومة التى لاقاها ، واستطاع أخوه على بن بويه إخضاع بلاد فارس ، وأرسل إلى الخليفة الراضى يطلب اعترافه بسلطته فى فارس ، فبعث اليه بالخلع مع أحد رسله وأمره ألا يسلمها إليه إلا بعد أن يرسل ثمانمائة مليون درهم إلى بغداد ويتعهد بأن يؤدى إليه مثلها سنويا ، لكن على بن بويه احتال على الرسول حتى أخذ منه الخلع ، ثم امتنع عن دفع هذا المبلغ .

لم يكن على بن بويه هو الذى ارتفع شأنه دون غيره من البويهيين ، بل استولى أخوه الحسن على بلاد العراق العجمى ؛ ودعا قواد بغداد أخاه الثالث أحمد بن بويه إلى المسير إليهم حين ساءت الحالة فى عهد الخليفة المستكفى ، فوصل بغداد فى ١١ جمادى الأولى سنة ٣٣٤هـ . فقابله الخليفة واحتفى به ومنحه إمرة الأمراء . وبايعه أحمد بالخلافة ؛ ولكى يظهر هذا الخليفة تأييده لبنى بويه منح زعماءهم الألقاب ؛ فلقب عليا عماد الدولة ، ولقب الحسن ركن الدولة . ولقب أحمد الذى أصبح مطلق التصرف فى العراق معز الدولة .

مسكويه : تجارب الأمم ، ج ١ ، ص ٢٩٦ — ٣٠٢

حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ . ص ٩٩ — ١٠١

الدورى : العصور العباسية المتأخرة ص ٢٤٤ — ٢٤٧

سلطانه على بلاد المشرق فى خطبة ألقاها على رؤساء كتامة بمدينة المنصورية[١] . فقال : « . . . رأيت أن أنفذ إليكم فأحضركم لتشاهدوا حالى إذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم ، وإنى لا أفضلكم فى أحوالكم إلا فيما لا بد لى منه من دنياكم وبما خصنى الله به من إمامتكم ، وإنى مشغول بكتب ترد علىّ من المشرق والمغرب ، أجيب عنها بخطى[٢] » .

كذلك عبَّر المعز قبيل وفاته سنة ٣٦٥ هـ عن أمله فى فتح العراق فى الحديث الذى دار بينه وبين رسول الأمبراطور البيزنطى الذى قدم إلى القاهرة لزيارته : وقد خاطبه المعز بقوله : « أتذكر إذ أتيتنى رسولا وأنا بالمهدية فقلت لك لتدخلن علىّ وأنا بمصر مالكا لها ، قال : نعم . قال : وأنا أقول لك لتدخل على بغداد وأنا خليفة[٣] . »

رأى الفاطميون أنه لن يتيسر لهم نشر نفوذهم فى بلاد المشرق إلا بفتح مصر لتوسطها العالم الإسلامى فضلا عن قربها من المشرق الذى حرص المعز على إخضاعه ، لذلك وجه الفاطميون أنظارهم إليها

---

(١) أسس الخليفة المنصور الفاطمى مدينة المنصورية سنة ٣٣٧ هـ فى الموضع الذى دارت فيه الواقعة بينه وبين أبى يزيد مخلد بن كيداد على مقربة من القيروان واتخذها حاضرة له .

(راجع كتاب : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب لأبى عبيد البكرى ، ص ٢٥) .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا ، ص ١٣٦ — ١٣٧

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ، ص ٢٢٠

لانتزاعها من الدولة العباسية ، واستطاعوا أن يبسطوا سلطانهم عليها سنة ٣٥٨ هـ ، وأقيمت للخليفة الفاطمي الخطبة على منابرها .

ولما أيقن الفاطميون أن دعاتهم فى بلاد المشرق قد نجحوا فى صرف كثير من المسلمين عن تأييد العباسيين ، شرعوا فى مواصلة جهودهم لبسط سيادتهم على أراضى الدولة العباسية ، فتخطى النفوذ الفاطمى فى عهد المعز الحدود المصرية إلى بلاد الشام . لكنه لم يكن مستقراً فيها ، بينما نراه ينمو ويزداد فى جزيرة العرب بفضل الدعاية الفاطمية التى وجدت من تلقاء نفسها مرعى خصيباً فى تلك البلاد ، فأقيمت الخطبة فى مكة والمدينة لكثير من الخلفاء الفاطميين ، كما انتشر نفوذهم فى بلاد اليمن وذاعت دعوتهم فى كثير من بلادها ، وبذلك تضاءل سلطان الدولة العباسية الروحى فى جزيرة العرب كما تضاءل سلطانها السياسى فى بلاد الشام من قبل .

كانت بلاد العراق محط أنظار الفاطميين وعلى الأخص بعد أن استبد البويهيون بالسلطة فى بغداد سنة ٣٣٤ هـ وقضوا على نفوذ الخلفاء العباسيين ، بل شاركوهم فى مظاهر سيادتهم الدينية والسياسية .

أقام البويهيون على أثر دخولهم بغداد إمارة وراثية . وكانوا يعتنقون المذهب الشيعى على مبادىء الزيدية التى أدخلها بلاد الديلم حسن بن على الزيدى [1] . ومن ثم صاروا لا يعترفون بحق العباسيين

---

(١) نشر حسن بن على الزيدى الاسلام بين أهالى الديلم وطبرستان فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، وقضى على الوثنية والمجوسية التى كانت منتشرة بينهم ، واستطاع أن يستميلهم إلى جانبه ، وظلوا مخلصين له طيلة حياته ، كذلك نجح حسن =

فى السيادة على جميع العالم الإسلامى [١] ، وإنما اعتبروهم مغتصبين للخلافة من أصحابها العلويين [٢] .

وقد تأثر البويهيون إلى حد كبير بالدعاية الفاطمية فى بلاد المشرق ؛ فلما قبضوا على زمام السلطة فى بغداد وضعف تبعا لذلك مركز الخليفة فكروا فى القضاء على الخلافة السنية وإقامة خلافة شيعية مكانها ، وحاول معز الدولة بن بويه (٣٣٤ — ٣٥٦هـ) إخراج هذه الفكرة إلى حيز العمل وذلك بنقل الخلافة العباسية إلى أحد العلويين، لكن خواصه حذروه من سخط الناس ومخالفتهم لأن عامتهم فى الأقطار الاسلامية اعتادوا الدعوة العباسية ، وأطاعوا العباسيين طاعة الله ورسوله [٣] .

وقد وضح ابن الأثير [٤] تلك المحاولة التى شرع معز الدولة فى تنفيذها ثم لم يلبث أن عدل عنها بقوله : « لقد بلغنى أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه فى إخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوى أو لغيره من العلويين ، فكلهم أشار بذلك ما عدا بعض خواصه ، فانه قال : « ليس هذا برأى ، فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة

= ابن على الزيدى فى القضاء على النظام الإقطاعى الذى كان سائدا فى بلاد الديلم، وظلت طبرستان بيد أسرته حتى سنة ٣١٤هـ حين فتح مرداويج بن زياد الديلمى هذا الاقليم .
(الدورى : العصور العباسية المتأخرة ، ص ٧٢ — ٧٣) .

(١) Arnold. The Caliphate p. 61

(٢) ابن الأثير الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ، ص ١٤٩

(٣) الدورى العصور العباسية المتأخرة ، ص ٢٤٨

(٤) الكامل فى التاريخ ، جـ ٨ ، ص ١٤٩

ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه » .

عدل معز الدولة بن بويه عن عزمه لما قد يتعرض له سلطانه من خطر بسبب وجود خلافة علوية يطيعها الجند من الديلم ويكونون أداة فى يد الخليفة يستغلها لمصلحته متى شاء [1] ، وفضل أن يستبد بالسلطة فى ظل خليفة عباسى ضعيف على أن يكون تابعا لخليفة يعترف بإمامته . كما أن أمراء بنى بويه [2] الذين خلفوه وأصبحوا مطلق التصرف فى العراق حذوا حذوه ، فلم يقدموا على تحويل الخلافة إلى أحد العلويين ، لكنهم ظلوا على اتصال بالفاطميين ، فسمحوا لدعاتهم بنشر عقائد مذهبهم فى بلاد العراق وغيرها من البلاد التى كانت خاضعة لنفوذ بنى بويه [3] .

كان البويهيون رغم حرصهم على الاحتفاظ بنفوذهم السياسى

(١) مسكويه : تجارب الأمم ، ج ٢ ، ص ٨٧

Noeldeke, Sketches From Eastern History p. 88.

(٢) نقف مما ورد فى كتاب « سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة » أن من بين ألقاب بنى بويه : شاهنشاه المعظم ملك الملوك ، سلطان الدولة ، معز أمير المؤمنين ، ويمين خليفة الله ، كما لقبوا أحيانا بلقب أمير الأمراء .

أما Stanley Lane-Poole فى كتابه (Muhammadan Dynasties p. 140) فيذكر أن أمراء بنى بويه لم يتخذوا لأنفسهم لقب سلطان على السكة ، وإنما استعملوا لقب أمير وملك .

(راجع حاشية رقم ٥ ، كتاب : تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٣ ، ص ١٠١-١٠٢)

(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٣ ، ص ١٠٢ - ١٠٣

يؤثرون الفاطميين على العباسيين من الناحية المذهبية ، فتبودلت الرسائل الودية بين العزيز بالله الفاطمى وعضد الدولة بن ركن الدولة (٣٦٧ — ٣٧٢ﻫ) فاعترف هذا السلطان بإمامة الخليفة الفاطمى ، كما كان لغارات البيزنطيين المتكررة على الأراضى المتاخمة لحدود كل من الدولتين العباسية والفاطمية أثر كبير فى تقريب مسافة الخلف بينهما وتعاونهما على إيقاف هذا العدو المشترك عند حده ؛ ويتبين لنا ذلك من الكتاب الذى بعثه العزيز مع أحد رسله إلى عضد الدولة سنة ٣٦٩ﻫ ، وقد جاء فيه [1] : « . . . إن رسولك وصل إلى حضرة أمير المؤمنين مع الرسول المنفذ إليك ، فأدى ما تحمله من إخلاصك فى ولاء أمير المؤمنين ومودتك ومعرفتك بحق إمامته ، ومحبتك لآبائه الطائعين الهادين المهديين . فسُرّ أمير المؤمنين بما سمعه عنك ، ووافق ما كان يتوسمه فيك وأنك لا تعدل عن الحق . . . ، وقد علمت ما جرى على ثغور المسلمين من المشركين ، وخراب الشام وضعف أهله ، وغلاء الأسعار . ولولا ذلك لتوجه أمير المؤمنين بنفسه إلى الثغور ، وسوف يقدم إلى الحيرة ، وكتابه يقدم عليك عن قريب ، فتأهب إلى الجهاد فى سبيل الله »

ومما هو جدير بالذكر أن رسول العزيز بالله الفاطمى لما وصل إلى بغداد استقبل استقبالا حافلا ، فقد اصطفت الجند على جانبى الطريق ، وأخذ القواد وكبار رجال الدولة أماكنهم كل على حسب مكانته . على حين جلس الخليفة الطائع وراء الستر . حتى إذا ما رفع

(١) أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٤ - ١٢٥

هذا الستر رأى الحاضرون الخليفة جالساً على عرش مرتفع ويحيط به مئات الحراس ممتشقين سيوفهم ، مرتدين أبهى حللهم . وأمام الخليفة مصحف عثمان ، وعلى كتفيه بردة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبيده قضيب الملك ، وتقدم عضد الدولة البويهى وقبل الأرض . هنا سأل رسول الخليفة الفاطمى — وقد أخذت الدهشة منه كل مأخذ . من هذا الذى يُسجد له وتقبّلُ الأرض بين يديه ؟ أهو الإله العظيم ، فأجابه عضد الدولة : إنه خليفة الله وظله على الأرض[1]

لما وصل كتاب العزيز إلى عضد الدولة ، أرسل إليه رداً ، أقره فيه على انتمائه لأهل بيت رسول الله وأظهر استعداده لتنفيذ أوامره[2] . وقد علق أبو المحاسن[3] على هذا الكتاب الذى أرسله عضد الدولة البويهى إلى الخليفة العزيز بقوله : « وأنا أتعجب من كون عضد الدولة كان إليه أمرُ الخليفة العباسى ونهيُه . ويقع فى مثل هذا لخلفاء مصر ، وقد علم كلُّ أحد ما كان بين بنى العباس وخلفاء مصر من الشنآن . وما أظن عضد الدولة كتب له ذلك إلا عجزاً عن مقاومته ، فإنه قرأ كتابه فى حضرة الخليفة الطائع ، وأجاب بذلك أيضاً بعلمه ، فهذا من العجب » .

على أن هذه السياسة التى كانت تنطوى على التودد بين الخليفة

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٧٠ - ٢٧١
Arnold, The Caliphate p. 66 — 67
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ١٢٥
(٣) النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ١٢٥ .

الفاطمى وعضد الدولة البويهى ما لبثت أن تبدلت فى أواخر عهد هذا السلطان، بل نراه يجهز قواته لغزو مصر واستردادها من الفاطميين بعد أن اتضح له خطر الدولة الفاطمية على سلطان بنى بويه، فقد ذكر أبو منصور عبد القاهر البغدادى فى كتابه الفرق بين الفرق[1] أن عضد الدولة تأهب للسير إلى مصر وانتزاعها من أيدى الباطنية، وكتب على أعلامه: « بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد خاتم النبيين، الطائع لله أمير المؤمنين، ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . . ». لكن هذه المحاولة لم تتم بسبب وفاة عضد الدولة. وقد قيل إن ماقام به هذا السلطان كان نتيجة لشكه فى نسب الفاطميين، ذلك أنه دعا العلويين ببغداد، وقال لهم: « إن الخليفة بمصر يدعى أنه علوى. فأنكروا انتسابه إليهم، فبعث إلى العزيز رسولا يقول له: نريد أن نعرف من أنت، فعظم ذلك على الخليفة الفاطمى، وأزمع رسول عضد الدولة على العودة إلى بغداد، وبينما هو فى طريقه إليها قتل بطرابلس[2].

على الرغم من أن البويهيين لم يعملوا على مناصرة الفاطميين فى بداية عهدهم بالعراق، فإنهم ظلوا طوال حكمهم يشجعون المذهب الشيعى الذى يدينون به وقربوا إليهم أتباع هذا المذهب ليستعينوا بهم على تحقيق سياستهم فى العراق، بل عرفوا بتعصبهم للشيعة مما أدى إلى قيام الثورات من حين إلى حين بين الشيعيين والسنيين فى بغداد.

---

(١) ص ٢٧٥ - ٢٧٦

(٢) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ص ٣٦

وليس أدل على ذلك مما قام به بهاء الدولة بن عضد الدولة (٣٧٩ — ٤٠٣ هـ)، فقد تعصب لأهل الشيعة فى بغداد حين وطدوا عزمهم على مناصرة الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى بمصر سنة ٣٩٨ هـ، وصاحوا يا حاكم، يامنصور، وكان لتحيز هذا السلطان لهم أثر سيء فى نفس القادر بالله العباسى (٣٨١ — ٤٢٢ هـ). فأمد السنيين بفريق من حرسه حتى يستطيعوا الوقوف فى وجههم، ومن ثم دارت رحى الحرب بين الفريقين. وانتهى الأمر بهزيمة أهل الشيعة[1].

لم يدخر الفاطميون جهداً فى سبيل نشر الدعوة الفاطمية فى بلاد العراق. فأقيمت الدعوة للخليفة العزيز سنة ٣٨٢ هـ فى الموصل على يد أميرها أبى الدرداء محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد العقيلى[2]،

كذلك نجح الحاكم بأمر الله الفاطمى فى استمالة قرواش بن المقلد الملقب بمعتمد الدولة — أمير بنى عقيل - الذى آلت إليه السيادة فى الموصل؛

(١) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٢٧٤

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢ ص ٢٠١

(٣) كان بنو عقيل وغيرهم من القبائل العربية (بنو كلاب وبنو نمير وبنو خفاجة) يقيمون بين الجزيرة والشام. ولما أسس الحمدانيون دولتهم فى الموصل، صاروا من رعاياهم، يؤدون اليهم الإتاوة ويخرجون معهم فى الحروب. على أن بنى عقيل سرعان ما تطلعوا إلى امتلاك البلاد بعد أن تطرق الضعف إلى دولة بنى حمدان، فاستولى أميرهم أبو الدرداء محمد بن المسيب بن رافع بن المقلد على نصيبين سنة ٣٧٩ هـ، ثم سار إلى الموصل وضمها إلى حوزته فى السنة التالية، وأقره بهاء الدولة بن بويه عليها، لكنه لم يتمتع بولايتها طويلا، فقد عزله البويهيون سنة ٣٨٢ هـ. ولما توفى أبو الدرداء سنة ٣٨٦ هـ، استعاد أخوه المقلد ولاية الموصل وأسس بها دولة العقيليين التى ظلت قائمة حتى سنة ٤٨٩ هـ

ابن الأثير: ج ٩، ص ٢٦، ابن خلدون: العبر، ج ٤، ص ٢٥٤ - ٢٥٦.

فخرج عن طاعة الخليفة العباسى القادر بالله سنة ٤٠١ هـ، وقام بنشر الدعوة الفاطمية فى الموصل والأنبار والمدائن والكوفة، كما أحل اسم الحاكم بأمر الله فى الخطبة محل الخليفة العباسى.

يقول أبو المحاسن[1] عن إقامة الخطبة فى الموصل للحاكم بأمر الله «أحضر (معتمد الدولة) الخطيب يوم الجمعة رابع المحرم (سنة ٤٠١ هـ) وخلع عليه قباء دبيقيا وعمامة صفراء وسراويل ديباج أحمر وخفين أحمرين. وقلده سيفاً وأعطاه نسخة ما يخطب به» وإليك بعض ما ورد فى هذه الخطبة[2] «... اللهم وصل على وليك الأزهر، وصديقك الأكبر، على بن أبى طالب أبى الخلفاء الراشدين المهديين اللهم وصل على السبطين الطاهرين الحسن والحسين، وعلى الأئمة الأبرار والصفوة الأخيار، من أقام وظهر، ومن خاف فاستتر. اللهم وصل على الإمام المهدى بك، والذى بلغ بأمرك وأظهر حجتك ونهض بالعدل فى بلادك.. اللهم وصل على القائم بأمرك والمنصور بنصرك، اللذين بذلا نفوسهما فى رضائك، وجاهدا أعدائك. اللهم وصل على المعز لدينك، المجاهد فى سبيلك..، اللهم وصل على العزيز بك الذى مهدت به البلاد وهديت به العباد. اللهم واجعل نوامى صلواتك وزواكى بركاتك، على سيدنا ومولانا إمام الزمان وحصن الإيمان وصاحب الدعوة العلوية، عبدك ووليك المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الراشدين..

(١) النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢٢٤

(٢) أبو المحاسن النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ٢٢٦ — ٢٢٧.

اللهم وفقنا لطاعته ، واجمعنا على كلمته ودعوته . اللهم وأعنه على ما وليته ، واحفظه فيما استرعيته ... وانصر جيوشه وأعل أعلامه فى مشارق الأرض ومغاربها ، إنك على كل شىء قدير » .

استاء الخليفة القادر بالله العباسى حين بلغه نبأ ذيوع الدعوة الفاطمية فى بعض بلاده ، وأنفذ القاضى أبا بكر الباقلانى إلى السلطان بهاء الدولة ليخبره بالخطر الذى يهدد دولته من ناحية الفاطميين ، ويطلب منه العمل على مناهضة نفوذهم [1] فعدل بهاء الدولة عن تأييد الحاكم بأمر الله إجابة لرغبة الخليفة العباسى ، وأرسل جيشاً إلى ابن المقلد اضطره إلى وقف الدعوة للحاكم فى بلاده وإقامة الخطبة للقادر بالله [2].

كذلك رأى الخليفة القادر بالله العباسى بعد أن تجلى له نجاح الدعوة الفاطمية فى بعض بلاد العراق أن يلجأ فى محاربة الفاطميين إلى سلاح التشهير بسمعتهم فى العالم الإسلامى ، لعله يصل من وراء ذلك إلى القضاء على نفوذهم ، فعقد اجتماعا دعا إليه الفقهاء والقضاة وبعض زعماء الشيعة ، وأصدروا فى شهر ربيع الثانى سنة ٤٠٢ هـ محضراً يتضمن الطعن فى نسب الفاطميين خلفاء مصر وفى شرعية إمامتهم ، وأنهم ليسوا من آل البيت ، وقرئت نسخ من هذا المحضر فى بغداد . وكان

(١) ابن خلدون . العبر ، ج ٢ ، ص ٤٤٢

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٧٦ — ٧٧

من بين الموقعين عليه الشريف الرضى وأخوه المرتضى . وفريق من أكابر العلويين . وكان مما ورد فيه : (... فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملقب بالحاكم . هو ومن تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس . أدعياء ، خوارج . لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب . وأن ذلك باطل وزور ، وأنهم لا يعلمون أن أحداً من الطالبيين توقف عن إطلاق القول فى هؤلاء الخوارج إنهم أدعياء . وقد كان هذا الانكار شائعا بالحرمين فى أول أمرهم بالمغرب . أن هذا الناجم بمصر هو وسلفه .. قد عطلوا الحدود ، وسفكوا الدماء وسبوا الأنبياء ولعنوا السلف وادعوا الربوبية[(١)] . »

على أنه يتضح لنا مما ورد فى كل من ابن الأثير[(٢)] والمقريزى[(٣)] أن الشريف الرضى الموسوى العلوى امتنع عن توقيع هذا المحضر ، يؤيد هذا القول تلك القصيدة التى نظمها وأثبت فيها صحة نسب الفاطميين ، غير أن هذه القصيدة لم ترد فى ديوان شعره خوفا من الخليفة العباسى القادر بالله وإرضاء لأبيه .

وإليك بعض أبياتها :

ما مقامى على الهوان وعندى	مِقْوَلٌ صارمٌ وأنفٌ حَمِىٌّ
ألبَسُ الذُّلَّ فى بلاد الأعادى	وبمصر الخليفة العَلَوِىُّ
مَنْ أبوه أبى ومولاه مولا	ىَ إذا ضامنى البعيد القصىُّ
لَفَّ عِرقى بعرقِه سيِّدَا النا	س جميعا : محمدٌ وعلى

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ . ص ٢٢٩ — ٢٣٠
(٢) الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ، ص ٨
(٣) اتعاظ الحنفا ، ص ٤٠ ، ٤٣ — ٤٤

إن ذلّ بذلك الحيّ عزّ ... وأوامى بذلك الرّبع رىّ

* * *

أثارت هذه الأبيات غضب الخليفة القادر بالله ؛ فبعث إلى الشريف أبي أحمد الموسوى والد الشريف الرضى يعاتبه على ما جاء في قصيدة ابنه، بقوله: «قد عرفت منزلتك منا وما لا نزال عليه من الاعتداد بك في الدولة من مواقف محمودة، ولا يجوز أن تكون أنت على خليفة ترضاه. ويكون ولدك على ما يضادها»، فاستدعى أبو أحمد ابنه، وقال له: «اكتب خطك إلى الخليفة باعتذار واذكر فيه أن نسب المصرى مدخول، وأنه مدّع في نسبه» فقال الشريف الرضى: لا أفعل؛ فقال أبوه: أتكذبنى في قولى، فقال الشريف الرضى: ما أكذبك ولكنى أخاف من الديلم وأخاف من المصرى، ومن الدعاة التى له في البلاد؛ فقال أبوه: أتخاف ممن هو بعيد عنك وتراقبه. وتسخط من هو قريب وأنت برأى منه ومسمع، وهو قادر عليك وعلى أهل بيتك.

لم يقف تيار الدعوة الفاطمية في بلاد العراق رغم ما بذله الخليفة القادر بالله العباسى من مجهود للقضاء على النفوذ الفاطمى في بلاد الدولة العباسية، فقد أتيحت الفرصة لدعاة الفاطميين لمواصلة جهودهم في نشر دعوتهم وصادفوا كثيراً من النجاح حين ساد الاضطراب في بلاد العراق في مستهل القرن الخامس الهجرى بسبب تنافس أمراء بنى بويه على السلطة، فقام النزاع بين سلطان الدولة الذى ولى الحكم في العراق، سنة ٤٠٣ هـ وابن أخيه أبى الفوارس؛ ويعزو ابن الأثير [1]

(١) الكامل في التاريخ، جـ ٩؛ ص ١٠١

هذا النزاع إلى إغراء الديلم أبا الفوارس بمحاربة أخيه وأخذ ما بيده من البلاد، كما دارت الحرب بين جلال الدولة وابن أخيه أبي كاليجار الذي استمال إليه بعض أمراء العراق، واستولى على البصرة وواسط، ثم تمكن جلال الدولة من استردادهما. كذلك كان لازدياد نفوذ الأتراك أثره في سوء الحالة في بلاد العراق، فقد أخذوا يتدخلون في تولية أمراء بني بويه وعزلهم، ويحملونهم على أن يحلفوا لهم على الطاعة والوفاء. ولم يكن بملك الخليفة إلا تنفيذ رغباتهم. وكان هؤلاء الأتراك ينزعون دائما إلى الخروج على حكامهم طمعاً في ابتزاز الأموال. وقد قاموا بعدة محاولات ترمى إلى خلع جلال الدولة وتولية ابن أخيه أبي كاليجار في السلطنة من بعده[1].

لم تكن حقيقة الحال فى بلاد العراق خافية عن الحكومة الفاطمية في مصر، فلما وصل إلى الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله الفاطمي ما حل ببغداد من الفوضى بسبب النزاع والمنافسة بين أمراء بنى بويه، والخلاف بين جند الأتراك، رأى أن ينتهز هذه الفرصة ليتابع سياسة أسلافه فى نشر الدعوة الفاطمية ببلاد العراق، فأرسل فى سنة ٤٢٥ هـ إلى بغداد بعض دعاته، فاستجاب لهم كثير من الناس[2].

كان للجهود التي بذلها الفاطميون لنشر دعوتهم عن طريق دعاتهم في بلاد الدولة العباسية وعلى الأخص منذ بداية القرن الخامس الهجرى

(١) حسن ابراهيم تاريخ الاسلام السياسى، ج ٣، ص ١٢٧ — ١٢٨.
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا، ص ٢٧٦

أثرها فى حمل العباسيين على بث الدعايات السيئة ضد الفاطميين للحط من شأن الخلافة الفاطمية . ولعل أهم ما قاموا به لتحقيق هذه الغاية هو تنفير المسلمين منهم بإدعائهم عدم صحة نسب الفاطميين إلى على وفاطمة . وقد سار الخليفة القائم بأمر الله العباسى على سياسة أبيه القادر بالله فى النيل من الفاطميين ومناهضة نفوذهم ، فأصدر ديوانه ببغداد سنة ٤٤٤ هـ محضراً تضمن إنكار انتساب الفاطميين لأهل البيت[١] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ٥٣

٢ – حركة البساسيرى فى العراق

لم تكن حالة الخلافة العباسية فى عهد القائم بأمر الله أحسن منها فى عهد من سبقه من الخلفاء ، فقد تجلى فى أيامه استئثار بنى بويه بالسلطة ، وقيام النزاع والمنافسة بين أمرائهم من جهة ، وبينهم وبين الجند من جهة أخرى ، ففى سنة ٤٢٤ هـ ، ظهر التنافس بين جلال الدولة وابن أخيه أبى كاليجار ، كما ثار جند الأتراك على جلال الدولة ونهبوا داره وكتبه ودواوينه سنة ٤٢٦ هـ ، وأقاموا الخطبة ببغداد لأبى كاليجار – وكان إذ ذاك بالأهواز ، غير أنهم ما لبثوا أن اعتذروا له وأعادوه إلى ملكه [١] . ولما توفى جلال الدولة سنة ٤٣٥ هـ ، خلفه ابنه الأكبر أبو منصور فيروز الذى لقبه الخليفة « الملك العزيز » غير أنه لم يتمكن من الاحتفاظ بسلطة أبيه فترة طويلة . فقد أرسل أبو كاليجار بن سلطان الدولة إلى كبار القواد يستميلهم إليه ويعدهم باغداق الأموال عليهم : فمالوا إلى تأييده وانصرفوا عن « الملك العزيز » ؛ وبذلك استطاع أبو كاليجار دخول بغداد . وأقيمت له الخطبة بهذه المدينة فى صفر سنة ٤٣٦ هـ [٢] . واعترف بنفوذه سائر أمراء العراق .

ظل أبو كاليجار بعد توليته أمور العراق يعنى بشئون فارس فقضى على حركات الثوار فى أصبهان وكرمان ، كما عمل على إصلاح

---

(١) ابن خلدون : العبر ، ج ٣ ، ص ٤٤٨ — ٤٥٠

(٢) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ١٧٨ ، ١٨٤

ما بينه وبين طغرلبك السلجوقي الذي استولى على خراسان والري فعقد معه الصلح سنة ٤٣٩ هـ ، وتوثقت عرى المودة بينهما برباط المصاهرة، يقول ابن الأثير [١] : «كتب طغرلبك إلى أخيه (إبراهيم ينال) يأمره بالكف عما وراء ما بيده ، واستقر الحال بينهما على أن يتزوج طغرلبك بابنة أبي كاليجار ، ويتزوج الأمير أبو منصور بن أبي كاليجار بابنة الملك داود أخي طغرلبك». كذلك عمد أبو كاليجار إلى التقرب من الفاطميين ليتخذهم وسيلة لارهاب العباسيين حتى لا يحاولوا الاستعانة بالسلاجقة الذين أخذوا يهددون سلطان بني بويه في ذلك الحين.

كانت الدعوة الفاطمية إذ ذاك قد لقيت تأييداً كبيراً عند الديالمة في فارس على يد الداعي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي [٢] الذي قام بدور هام في نشر الدعوة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي في بلاد الفرس والعراق ، واستطاع بسياسته أن يجذب الملك أبا كاليجار البويهي إلى هذه الدعوة [٣] .

(١) الكامل في التاريخ ، جـ ٩ ، ص ١٨٤

(٢) ولد المؤيد في الدين هبة الله في شيراز سنة ٣٩٠ هـ ، وأخذ عن والده موسى بن داود علوم الدعوة الفاطمية ، كما شاهد في صباه أحمد حميد الدين الكرماني كبير دعاة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في فارس . ومن المحتمل أن يكون قد تأثر بمعرفته . وبذل المؤيد نشاطاً كبيراً في استمالة أمراء بني بويه إلى الفاطميين (مقدمة سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ، ص ١٣ — ١٤)

(٣) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة ، ص ٤٣

وقد وضح هبة الله في سيرته ، كيف كان يجتمع بالملك أبي كاليجار ليلقنه أصول الدعوة الفاطمية ، فقال : « كنت كل ليلة جمعة أمكث عنده إلى أن يمضي هزيع من الليل ، وهو يسألني عما يهجس في نفسه ، وكنت أجيب عنه جواباً يظهر أكثر تباشير الفرح في وجهه ، وأسأله كيف وقع هذا الجواب منك ، فربما حرك رأسه يعني أنه جيد ، فلا أرضى دون أن أقرره بلسانه أنه ما دخل في مسامعه مثله . . . . ؛ وكان بناء المجالس التي تعقد بحضرته في ليالي الجمعات على أن يبتدىء بقراءة شيء من قوارع القرآن ، ويثني بباب من كتاب الدعائم [1] ، ويثلث بأن يسأل عما يريده . فأجيبه عنه ، وأختم بالتحميد والخطبة لمولانا الإمام خلد الله ملكه . . . ، ومن جملة ما كنت قررته معه أني غير ناهيه من استماع ما يريد . استماعه من أي لسان كان ، من أي مذهب كان ، ولكن يرجع به إليّ ، ويسألني عما عندي فيه فإن وجد الرجحان فيما عندي لزمه أن يرفض أقوالهم ويعمل بما هو أنجى له وأرجى لخلاصه معه » .

---

(١) يعرف هذا الكتاب باسم « دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام » . ويعد من أهم مراجع فقه الإسماعيلية ، وقد ألفه القاضي أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي ، وكان النعمان مالكي المذهب ثم اعتنق المذهب الإسماعيلي ، ودخل في خدمة عبيد الله المهدي حول سنة ٣١٣ هـ ؛ واقتصر عمله في عهد المهدي والقائم والمنصور على جمع ونشر كتب المذهب الإسماعيلي ، واتخذه المنصور والمعز قاضياً لهما ؛ وتوفي سنة ٣٦٣ هـ في خلافة المعز لدين الله .

(راجع كتاب المعز لدين الله لحسن إبراهيم وطه شرف ، ص ٢٥٨)

لما رأى الخليفة القائم بأمر الله العباسى الخطر الذى يهدد [illegible] دولته ومذهبه السنى فى بلاد الفرس والعراق من جراء نشاط المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى فى نشر الدعوة الفاطمية ، بعث رسولا من قبله إلى الملك أبى كاليجار يطلب إليه تسليم داعى الفاطميين ويهدده بالاستعانة بالسلاجقة وإغرائهم بالاستيلاء على ما يمتلكه من البلاد [1] ؛ فلم يحفل أبو كاليجار فى بادىء الأمر بهذا التهديد ، ثم أنفذ رسالة إلى هبة الله الشيرازى ، حذره فيها من عاقبة بقائه فى شيراز بقوله [2] : « لاشك أن هذه الضجة التى كادت تخرق الأرض وتشق الجبال وقعت فى مسامعك ، وعلمت أن هذه الأمم ، لا يحصيها إلا الله سبحانه . أعداؤك وخصماؤك ؛ وكانوا أعداءنا فيك أيام كنا نقربك وندنيك ، وينبغى الآن أن تأخذ لنفسك وتبتغى سبيل نجاتك ، وتفرغ هذه الممالك ؛ ثم تأخذ أى صوب شئت »

على أن الملك أبا كاليجار لم يكتف بهذه الرسالة التى بعث بها إلى هبة الله الشيرازى ، بل أرسل إليه وفداً من كبار رجاله ، فلما التقوا به عبّروا له عن أسف الملك للصعاب التى سيلاقيها إذا نفذ ما كلفه به من الرحيل عن تلك البلاد ، كما قدموا إليه كتاب الخليفة العباسى الذى تضمن التوعد بطغرلبك والطعن فى نسب الفاطميين ؛ وقد جاء فيه [3] : « والقول إنه إن كانت دعوة تعزى إليهم فى الأيام المتقدمة ، فلقد

---

(١) سيرة المؤيد فى الدين ، ص ٥٦

(٢) المرجع نفسه ، ص ٦٤

(٣) المرجع نفسه ، ص ٦٤ — ٦٥

كانت في الخفاء والستر . . وإن أحداً ما جسر على مثل ما جسر عليه هذا الرجل (هبة الله الشيرازي) . . . من الوقوف في بعض مواقف إظهاره وإشهاره والتجرد لدفع معالم ذكرهم بالصلاة والخطبة وإزالة أسامينا بالكلية . وأنه إذا سومح في بابه وأهمل تسليمه في يد صاحبنا ، فقد أخرجتمونا من عهدة الإيمان والعهود بيننا وبينكم ، وأحوجتمونا إلى استنصار من ينصرنا عليكم » .

ظل هبة الله الشيرازي رغم ما وصله عن اهتمام الخليفة القائم بأمر الله بالقضاء على جهوده واضطرار أبي كاليجار إلى الانصراف عن تأييد دعوته حريصاً على ولائه للفاطميين : فأجاب وفد الملك البويهي الذي أطلعه على كتاب الخليفة العباسي بأنه لا يعرف خليفة غير المستنصر بالله (الخليفة الفاطمي بمصر) . ثم أزمع الرحيل من شيراز وسار قاصداً مصر سنة ٤٣٨ هـ ، وهناك سعى إلى لقاء الامام المستنصر بالله ، فوجد من وزيره صدقة بن يوسف الفلاحي ترحيباً لإجابة هذه الرغبة . وقد وصف هبة الله الشيرازي في سيرته[1] كيف دخل إلى مجلس الخلافة بالقاهرة وحظى بمقابلة الخليفة الفاطمي ، فقال : « فلم تقع عيني عليه إلا وقد أخذتني الروعة ، وغلبتني العبرة ، وتمثل في نفسي أنني بين رسول الله وأمير المؤمنين — صلى الله عليهما — ماثل ، وبوجهي إلى وجهيهما مقابل ، واجتهدت عند وقوعي إلى الأرض ساجداً لولي السجود ومستحقه ، أن يشفعه لساني بشفاعة حسنة بنطقه فوجدته بعجمة المهابة معقولا ، وعن مزية الخطابة معزولا . . ومكثت

(١) ص ٨٥ — ٨٦

بحضرته ساعة لا ينبعث لساني بنطق ولا يهتدي لقول ، وكلما استطرد الحاضرون مني كلاما ازددت إعجاباً . . وهو خلد الله ملكه : يقول « دعوه حتى يهدأ ويستأنس » ، ثم قمت وأخذت يده الكريمة فترشفتها وتركتها على عيني وصدري ، وودعت وخرجت » .

ولا شك أن المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي يعد من أخلص دعاة الفاطميين الذين اتخذوا بلاد المشرق مركزاً لنشر دعوتهم . وقد استطاع بفضل ما أوتيه من حكمة ودهاء ، وما عرف عنه من حرص على التمسك بولائه للخلافة الفاطمية أن ينجح في تحويل كثير من أهالي هذه البلاد إلى المذهب الفاطمي مما أدى إلى ضعف نفوذ العباسيين في بعض بلاد المشرق . وليس أدل على ذلك من أن الديالمة قد أصبحوا — كما يقول المؤيد في الدين — « إلى صاحب مصر داعين وباسمه مبايعين » . وكان ذلك مما أثار حنق الخليفة العباسي ورجال دولته ، فتعاونوا جميعا على الوقوف في وجه دعاة الفاطميين .

واجه الخليفة القائم بأمر الله العباسي كثيراً من الصعاب عاقته عن استعادة نفوذه في دولته ، فضلا عن انتشار الدعوة الفاطمية في بعض بلاده ، ظل أمراء بني بويه رغم تنازعهم وتنافسهم على السلطة قابضين على زمام الأمور في بلاد الفرس والعراق . فلما توفى الملك أبو كاليجار سنة ٤٤٠ هـ ببلدة جناب بكرمان ، استدعى ابنه أبو نصر خسرو فيروز — وكان ينوب عنه إذ ذاك ببغداد — الجند واستحلفهم ، كما أرسل إلى الخليفة القائم بأمر الله يطلب منه أن يأذن له بذكر اسمه في الخطبة ويلقبه بالملك الرحيم ، فأجابه الخليفة إلى طلبه الأول . وامتنع عن

تلقيبه بهذا اللقب [١]، وقال : « لا يجوز أن يلقب بأخص صفات الله تعالى » واستقر ملك الأمير البويهى بالعراق وخوزستان والبصرة [٢]. وكان بعض إخوته ينافسونه فى بسط سلطانهم على بعض الولايات حتى أصبحت مدن فارس والعراق مراكز للنزاع بينه وبينهم [٣].

كان من بين الصعاب التى صادفت الخليفة القائم بأمر الله ثورات الجند الذين كانوا إذ ذاك يتألفون من عناصر مختلفة ، أهمها : العرب والديلم والأتراك ، وقد أثار هؤلاء الجند كثيرا من الشغب فى بغداد. وكان العنصر التركى أقوى هذه العناصر نفوذا ، فقد تدخل فى عزل بعض أمراء بنى بويه وتوليتهم ، كما قام الأتراك بفتنة فى بغداد سنة ٤٤٦ ﻫ يرجع سببها إلى تذمرهم من وزير الملك أبى كاليجار الذى ماطلهم فى رد الأموال المتبقية لهم ، فحاصروا دار الخلافة مما أزعج الناس وحملهم على إخفاء أموالهم . وبلغت الفوضى ذروتها فى بغداد حين ركب جماعة من الأتراك ونهبوا دار الروم ، وأخذوا فى نهب الوافدين إلى بغداد ، الأمر الذى أدى إلى غلاء الأسعار وندرة الأقوات ولما وقف الخليفة

---

(١) ذكر أبو المحاسن (النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ص ٤٦) أن الخليفة القائم بأمر الله لقب الأمير أبا نصر « الملك الرحيم » ، وخلع عليه خلعة السلطنة . وكانت الخلع سبع جباب كاملة ، والتاج ، والطوق ، والسوارين واللواءين ؛ وهذا يخالف ما أورده ابن الأثير (جـ ٩ ، ص ١٨٩) عن أن الخليفة العباسى لم يوافق على منح الأمير أبى نصر لقب « الملك الرحيم »

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ١٨٨ — ١٨٩

(٣) حسن ابراهيم . تاريخ الإسلام السياسى ، جـ ٣ ، ص ١٣٥

العباسي على هذه الأحداث التي ارتكبها الأتراك ، أرسل إليهم ينهاهم عن إثارة الاضطرابات في المدينة ويطلب إليهم الإخلاد إلى السكينة ، فلم يذعنوا لأوامره . وظلوا مصدر قلق واضطراب حتى بعد أن رأى وزير الملك الرحيم أن يعيد إليهم الأموال المتبقية لهم [١] .

كان من قواد بني بويه الأتراك في ذلك الوقت أبو الحارث أرسلان البساسيري [٢] الذي أعان الملك الرحيم في الاستيلاء على البصرة سنة ٤٤٤هـ من يد أخيه أبي علي بن أبي كاليجار ، ووطد سلطانه [٣] بها ، كما أوقع في السنة التالية بالأكراد والأعراب الذين عاثوا فسادا في بعض بلاد العراق ، وقطعوا الطريق طمعا في السلطنة . ولما قامت فتنة الأتراك ببغداد سنة ٤٤٦ هـ لم يعمل البساسيري على مؤازرتهم ، بل أقام في دار الخلافة وأظهر استياءه من حركتهم [٤] .

ازداد نفوذ البساسيري في العراق بعد أن عينه القائم بأمر الله رئيساً للأتراك ، وما لبث أن استبد بالسلطة في بغداد حتى أصبح الخليفة

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٠٧

(٢) كان أبو الحارث أرسلان مولى لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي النحوي وما زالت تتنقل به الأحوال حتى أصبح من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه . وقد عرف بالبساسيري نسبة إلى بلدة بفارس يقال لها بسا ، وتقع على أربعة مراحل من شيراز ، وبها جمع كبير من الديلم .

(المكين بن العميد : تاريخ المسلمين ، ص ٢٧٦ . ابن ميسر : تاريخ مصر ص ١١)

(٣) ابن خلدون : العبر ، ج ٣ ، ص ٤٥٥

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ج ٩ ص ٢٠٣ ، ٢٠٦ — ٢٠٧

العباسي « لا يقطع أمراً دونه ، ولا يحل ويعقد إلا عن رأيه » ، كما هابه أمراء العرب والعجم ، ودعي له على كثير من منابر بلاد العراق والأهواز ونواحيها ، وصار يشرف على ما يدخل بيت المال من الإيراد[1] . وقد أثار علو شأن البساسيري كوامن الحقد في نفس الوزير أبي القاسم على ابن المسلمة الملقب برئيس الرؤساء ، فأخذ يفسد ما بينه وبين الأمراء والخليفة

على أن البساسيري وإن كان قد استفحل أمره في بغداد حتى أصبح الخليفة العباسي والسلطان البويهي معه ضعيفي الجانب ، فانه ما لبث أن واجه بعض الصعاب من جراء ما قام به أبو المعالي قريش بن بدران أمير الموصل من محاصرة مدينة الأنبار والاستيلاء عليها ونهبها ثم إقامته الخطبة على منابرها للسلطان طغرلبك ؛ فاستاء البساسيري من جرأة أمير الموصل على مهاجمة البلاد التي تحت سلطانه ، وثارت ثائرته حين وصل إليه أن رسولين من قبل هذا الأمير قدما إلى بغداد وأكرم القائم بأمر الله وفادتهما ؛ فعد هذا الموقف من الخليفة تحدياً له وأظهر عدم ارتياحه ، وقال : هؤلاء وصاحبهم (أمير الموصل) كبسوا حلل أصحابي ونهبوا وفتحوا البثوق وأسرفوا في إهلاك الناس » . واستقر رأيه على إلقاء القبض عليهما ، لكنه لم يتمكن من تنفيذ غرضه : ونسب إلى رئيس الرؤساء (وزير القائم) أنه يقف حائلا دون تحقيق رغباته ، فكان

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، ج ٩ ، ص ٣٩٩ — ٤٠٠ ، ابن خلكان وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٧٦

ذلك من أكبر العوامل التي أدت إلى تبدل العلاقات بين البساسيري والخليفة العباسي القائم بأمر الله[1]

على أن رئيس الرؤساء لم يعدل عن خطته في العمل على الكيد للبساسيري وإضعاف شأنه. فأثار الأتراك البغداديين ضده باتهامه أنه تسبب في كل ما جرى عليهم من نقص في مرتباتهم. فأدى ذلك إلى استيائهم منه، وما لبثوا أن عبروا عن سخطهم عليه في هجومهم على دوره، واستيلائهم على جميع أملاكه ببغداد. ولم تكن العوامل التي دفعت الأتراك إلى القيام بهذه الحركة خافية عن البساسيري، فزاد حنقه على رئيس الرؤساء حين ثبت لديه أنه أوعز إلى الأتراك بالخروج عليه[2].

كانت الخلافة العباسية إذ ذاك يتهددها بعض الأخطار، فقد كشف القائم بأمر الله عن حقيقة تقرب بني بويه من الفاطميين على يد المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي. ولا شك في أنه كان بين صفوف جند بني بويه من الديلم والأتراك عدد غير قليل يميل إلى الفاطميين[3]. وقد تأثر البساسيري نفسه بالدعوة الفاطمية، وأصبح يرى وجوب الانحياز إلى الفاطميين بعد أن ساءت علاقته بالخليفة العباسي وأيقن من إعراضه عنه.

على أن القائم بأمر الله لم يتضح له موقف البساسيري منه إلا بعد أن كتب إليه وزيره (رئيس الرؤساء) أن البساسيري يعمل على خلعه.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٢٠٨ — ٢٠٩

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٩، ص ٢١١

(٣) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي، ج ٣، ١٣٦ — ١٢٧

وأنه راسل المستنصر بالله الخليفة الفاطمى بمصر ، فلما تحقق عند الخليفة القائم العباسى صحة ما نسب إلى البساسيرى من عزمه على الخروج عليه ومكاتبته الفاطميين بمصر ، عمل على الحد من نفوذه ، فأرسل إلى الملك الرحيم البويهى رسالة يقول فيها : « إن البساسيرى خلع الطاعة وكاتب الأعداء (يعنى المصريين) ، وأن الخليفة له على الملك عهود وله على الخليفة مثلها ، فإن آثره ، فقد قطع ما بينهما ، وإن أبعده وأصعد إلى بغداد تولى الديوان تدبير أمره » . فأظهر الملك الرحيم استعداده لإجابة طلب الخليفة بإبعاد البساسيرى عن بغداد ، كما أن البساسيرى نفسه لما علم بما تضمنته رسالة القائم العباسى رحل إلى الحلة [١] حيث نزل على أميرها دبيس بن مزيد لمصاهرة بينهما [٢] ، فظل مقيما بها حتى اضطر إلى المسير إلى الرحبة [٣] بعد أن دخل طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧ هـ [٤] .

لم تكن الحالة فى بلاد العراق فى الوقت الذى شغل فيه القائم بأمر الله العباسى بالتغلب على الصعاب الداخلية التى واجهته خافية عن السلاجقة الذين ازداد نفوذهم إذ ذاك فى شرق الدولة الإسلامية ، فعمدوا إلى انتهاز هذه الفرصة لمواصلة جهودهم لبسط سيادتهم على أراضى هذه الدولة ، ففى أوائل سنة ٤٤٧ هـ أظهر طغرلبك « أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر العلوى صاحبها »

(١) تعرف بحلة بنى مزيد ، وتقع بين الكوفة وبغداد

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ص ٢١١

(٣) مدينة بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات

(٤) ابن خلدون . العبر ، ج ٣ ، ص ٤٦٠

وأمر أصحابه بإعداد الأقوات والمؤن. ثم أرسل إلى الخليفة القائم بأمر الله أنه يدين له بالطاعة ويستأذنه فى دخول بغداد — وهو فى طريقه إلى مكة — ، فأذن له كما أمر الخطباء بإقامة الخطبة له على منابر بغداد ؛ فتم له ذلك فى أواخر رمضان سنة ٤٤٧ هـ[1].

على أن العامة فى بغداد ، أظهروا تذمرهم من دخول طغرلبك هذه المدينة وتمكنوا بفضل مساعدة بعض الأتراك من قتل فريق من جند السلاجقة[2] ، فاستاء من ذلك طغرلبك ، واستدعى الملك الرحيم البويهى وأتباعه ، واتهمهم بتدبير ما حدث ، ثم قبض عليهم وأرسل الملك الرحيم إلى قلعة على مقربة من الرى ، فظل معتقلا بها ثلاث سنوات ثم توفى[3].

ولما بلغ الخليفة العباسى ما حل بالملك البويهى وأتباعه . بعث إلى طغرلبك ينكر عليه سياسة العنف التى لجأ إليها على أثر دخوله بغداد ويقول : « إنهم إنما خرجوا إليك بأمرى وأمانى . فان أطلقتهم وإلا فأنا أفارق بغداد . فانى إنما اخترتك واستدعيتك اعتقاداً منى أن تعظيم الأوامر الشريفة يزداد وحرمة الحريم تعظم . وأرى الأمر بالضد[4] » . فأطلق السلطان السلجوقى سراح بعضهم . واستولى على جميع إقطاعات عسكر الملك الرحيم ، فكان ذلك مما حمل كثيراً منهم على الرحيل إلى

---

(١) ابن خلدون : العبر ، جـ ٩ ، ص ٤٥٩

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٢١٢

(٣) Gaston wiet, Histoire de La Nation Egyptienne vol. IV p. 232

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٢١٨

البساسيري والالتفاف حوله، فكثر بهم عدد أنصاره [١].

ولما طال مقام السلاجقة ببغداد، ولحق أهلها بسببهم كثير من الضر والأذى، رأى الخليفة القائم بأمر الله أن يبلغ عميد الملك الكندري وزير السلطان طغرلبك بما يعانيه الأهالي من جراء إقامة جند السلاجقة بينهم، فمضى إلى السلطان وأطلعه على حقيقة الحال في بغداد فاعتذر بكثرة الجند وعجزه عن تهذيبهم، وأصدر أوامره بإخراجهم من دور العامة. ثم ما لبث أن استقر رأيه على الرحيل عن بغداد للتخفيف عن أهلها، وغادرها في أواخر سنة ٤٤٨ هـ بعد أن ظل بها ثلاثة عشر شهراً لم يحظ فيها بمقابلة الخليفة [٢].

أخذ البساسيري في توطيد علاقاته مع رجال الحكومة الفاطمية في مصر بعد رحيله إلى الرحبة، فأرسل إلى المستنصر بالله الفاطمي يعلن له دخوله في طاعته، كما تبودلت المكاتبات بينه وبين الداعي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي الذي كان إذ ذاك بالقاهرة يرقب نشاطه في بلاد العراق؛ ومن بين الكتب التي أرسلها هذا الداعي إلى البساسيري، كتاب وصله قبيل قدومه إلى الرحبة، أخبره فيه بأنه سيكون عوناً له وجنوده البغداديين فبعث إليه البساسيري كتاباً تضمن شكره والتماسه النجدة. وقد جاء فيه: « فان أخذتم بأيدينا، أخذنا لكم البلاد، وإن قلدتمونا بجادكم

---

(١) ابن خلدون: العبر، جـ ٣، ص ٤٦٠

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ٩، ص ٢١٨

وإنجادكم ، فتحنا من جهتكم الأغوار والأنجاد »[١].

أيد المستنصر بالله الفاطمى أبا الحارث البساسيرى فى خروجه على الخليفة العباسى القائم بأمر الله ، كما عمل على إمداده بالمال والخيل والسلاح وقد انتهز الوزير أبو محمد الحسن اليازورى[٢] هذه الفرصة لإقصاء الداعى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى عن مصر لاستئثاره بنفوذ كبير عند الخليفة المستنصر ، فرأى أن يعهد إليه بحمل الأموال والأسلحة إلى البساسيرى غير أن المؤيد أدرك حيلة اليازورى ، فأبى فى بادىء الأمر القيام بهذه المهمة ، فحاول اليازورى أن يثنيه عن رأيه بأن أفضى إليه بموافقة الخليفة على انتدابه سفيراً من قبله إلى البساسيرى . ولم يزل يلح عليه حتى عدل المؤيد عن رفضه اصطحاب ركب الامدادات . واشترط على الخليفة فى كتاب أرسله إليه أن يتولى هذا الأمر دون أن يوجه إليه

---

(١) سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة ، ص ٩٦

(٢) هو أبو محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى ، نشأ فى بلدة يازور (وهى قرية من أعمال الرملة) من إحدى الأسر التى كانت تشتغل بالملاحة ، وشغل عدة مناصب ، فولى قضاء الرملة بعد أبيه ، كما عهد إليه النظر فى ديوان أم المستنصر ، ثم أسندت اليه الوزارة فى السابع من المحرم سنة ٤٤٢ هـ . وسمح له بالبقاء فى وظيفة رئيس خاصة أم الخليفة ولقب بالناصر للدين ، غياث المسلمين الوزير الأجل المكرم ، سيد الرؤساء ، تاج الأصفياء ، قاضى القضاة ، وداعى الدعاة . وبقى فى منصبه حتى قبض عليه المستنصر فى أول المحرم سنة ٤٥٠ هـ بتهمة مراسلته لطغرلبك السلجوقى ودعوته لغزو مصر .

(راجع ما ورد عن اليازورى فى : ابن الأثير ، جـ ٩ ص ٢٢١ — ٢٢٢ ، ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٥ — ٨)

لوم إذا فشل فى أدائه . فقال فى كتابه[١] : « . . وأن علىَّ أن أجتهد وأسعى وأكدح ، فما أصبت فيه فبها رحمة من الله وإقبال الدولة أدامها الله تعالى ، وما أخطأت فيه فلا يتوجهن علىّ عتب لا تحة ولا تعرضن لى فيها أحل وأعقد يد معترضة » .

سار المؤيد لنجدة البساسيرى مع فئة قليلة من الرجال ، تحمل الأموال والسلاح والخلع ، وقد هاله أن يكون مُقدماً على أمر خطير وهو القضاء على الخلافة العباسية دون أن تخرج معه حامية كبيرة ، بل اقتصرت المعونة التى سيقدمها للبساسيرى على الأموال والخلع ، وتشمل خمسمائة ألف دينار ، ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك ، وخمسمائة فرس ، وعشرة آلاف قوس ، وعدد كبير من السيوف ، وكثير من الرماح والنشاب[٢] . ومما هو جدير بالذكر أن وزير المستنصر لم يتردد فى أن يضحى بهذه الإمدادات رغم ما كانت تعانيه مصر من أزمة اقتصادية وغلاء حتى إنها لم ترسل ما اعتادت أن ترسله من القمح إلى مكة[٣] .

وقد وصف المؤيد خروجه من القاهرة بقوله[٤] : « وسرت فى جلبة عظيمة ، قد التف فيها من الوحش والركابية المقودين وسفساف الناس من البغالين والحمالين عسكر لو لم يسمى غير عذابهم عذاباً لكان فيه ما يغنى ويكفى . وكان الناس يتعجبون من أمرى . وقد كان موضع

(١) سيرة المؤيد ، ص ٩٧ — ٩٨
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٢
(٣) G. Wiet, Histoire de la Nation Egyptinne P. 233
(٤) سيرة المؤيد ، ص ١٠٠

العجب ، لعمرى كيف أجرد لمثل هذا الوجه الخطير العظيم رقبتى من دون أن يتبعنى من شيء يسمى العسكر اثنان ، ويعول بى على عسكر غريب معلوم الشأن ، يستعيذ بالله من شرهم الثقلان ، عادتهم بالاستخفاف بملوكهم معروفة » .

تجلى إخلاص المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى للخلافة الفاطمية فيما قام به من مجهود لمؤازرة حركة البساسيرى فى بلاد العراق . وكان الوزير اليازورى قد طلب منه أن يجند ثلاثة آلاف رجل من العرب الكلبيين بالشام ، يسير بهم إلى الرحبة ، وحذره من الاتصال بثمال ابن صالح بن مرداس صاحب حلب ، غير أن المؤيد أصر على تنفيذ خطته ؛ فسار بما صحبه من الأموال والسلاح والخيول ، وتواعد مع ابن صالح على أن يلقاه فى موضع يلى حمص يقال له الروستان (على جسر نهر العاصى) ؛ وهناك التقى المؤيد بابن صالح ومع كل منهما حامية من الجند . ولما نزلا معرة النعمان لحق بهما فريق من جند البساسيرى . وقد استطاع المؤيد بدهائه وحسن سياسته أن يكسب ثقة ثمال بن صالح ابن مرداس وأن يستميله إليه ويجعله يبدى استعداده لمعاونة الفاطميين ، فمنحه عند نزوله بباب حلب ما يخصه من الخلع ، ثم دعاه إلى تجديد البيعة للخليفة الفاطمى ، فأجاب إلى ذلك[1] . يقول المؤيد : « ولما دخلت حلب جددت عليه من أيمان البيعة فى خدمة الدولة ما كانت تميد الجبال لثقله ، وتنشق السموات والأرض من حمله » .

(١) سيرة المؤيد ، ص ١٠٠ — ١٠٢ ، ١٠٧ — ١٠٨

أخذ المؤيد بعد وصوله إلى حلب يتأهب للمسير إلى الرحبة حيث يقيم البساسيرى وجنده، وبينما هو فى طريقه إليها، ورد إليه كتاب نصر الدولة أحمد بن مروان صاحب ميافارقين وديار بكر، يخبره فيه أنه كان قد انحاز إلى جانب السلاجقة، فشاهد من شرهم وغدرهم وظلمهم وجورهم وإطلاقهم الأيدى فى الأموال ما جعله يتخلى عنهم، وأظهر رغبته فى معاونة المؤيد الذى كتب إليه يرحب به ويطلب منه إقامة الخطبة على منابر بلاده للمستنصر بالله الفاطمى [1].

ولما كان المؤيد حريصاً على توحيد كلمة جند البساسيرى وبث الطمأنينة فى نفوسهم، لذلك طلب من جند الأتراك البغداديين الذين قابلوه وهو فى طريقه إلى حلب العودة إلى الرحبة ليخبروا إخوانهم من جند البساسيرى بقرب قدومه إليهم لنجدتهم، وأنفذ معهم رسالة إلى القواد والحجاب يستميلهم إليه ويدعوهم إلى نصرته، ويبين لهم اهتمام الخليفة الفاطمى بأمرهم، فقال: « وغير خاف عنهم ما كان من إنعام مولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين بالإحفاء بهم والتلفت بوجه المراعاة إليهم رغبة فيما يردهم إلى أهلهم وديارهم.. »، كما حذرهم من طغرلبك السلجوقى بقوله: « إذ كانت الطاغية التركمانية من حيث أخذت عصا التّسيار وإلى حيث انتهت من الديار، لم تنازل ملكا ممولا ولا سلطاناً معمها

---

(١) سيرة المؤيد، ص ١٠٨، ١١٣ — ١١٥

بعز الاتباع فى العساكر والجيوش خولا ، ولم تنزل من غير منازل الغدر والخديعة منزلا [١] . .) .

واصل المؤيد مسيره إلى الرحبة وبصحبته ثمال بن صالح بن مرداس على رأس جنده من بنى كلاب ولم يكد يعلم أبو الحارث أرسلان البساسيرى بأن ركب المؤيد فى طريقه إليه حتى أسرع فى الخروج إلى لقائه ومعه جنده البغداديون . وقد رحب البساسيرى وجنده بوصول المؤيد إلى الرحبة أحسن ترحيب ، إذ اطمأنوا إلى أن الخليفة المستنصر بالله أجاب ملتمسهم فأعانهم بالمال والسلاح ، وازدادت محبتهم للمؤيد حين أخذ يوزع عليهم الخلع ويمنحهم الأموال ، وما لبثوا أن عبروا عن ولائهم للخليفة الفاطمى ، فحلفوا له بأيمان البيعة ، « وكان منهم من يحلف ويأخذ الذى يأخذه بالشكر ويضعه على الرأس والعين على ما جرت به عادة أخيار الناس ؛ ومنهم من يستقل القدر الذى يعطاه ويرده ، ظانا أن الذى يصير إليه من بعد استحلافه فهو كالجزاء عن يمينه التى أقسم بها وهو محقوق بأضعاف ما عرض عليه معها [٢] . . . »

ولما فرغ المؤيد من توزيع الخلع والأموال على أتباع البساسيرى من الأعراب والأكراد والأتراك . خلع على البساسيرى نفسه فى احتفال كبير أقيم لهذا الغرض ، وقرأ العهد الذى أنفذه إليه المستنصر فى شهر صفر سنة ٤٤٨ ﻫ . وقد جاء فيه [٣] : « من عبد الله ووليه معد أبى تميم

---

(١) سيرة المؤيد ، ص ١١٦ — ١١٧

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٢١

(٣) المرجع نفسه ، ص ١٢٢ — ١٢٤

الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين إلى صاحب الجيش : سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأل أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين . . ولما وجدك أمير المؤمنين من السابقين إلى النداء بشعاره فى ديار العراق ، والمبرزين بفضيلة السبق على أوليائه فى قضاء الآفاق ، المشمرين عن ساعد الجد بما يجعل عرصاتها بفيض عدله مشرقة بأنجم السعود ، ويعيد أعواد منابرها بذكر آل الرسول صلى الله عليه وسلم ، ناضرة العود . رأى أمير المؤمنين — وبالله توفيقه — أن يطوقك طوق ولاية رجالها ، ويقيم على رأسك لمزية التقدمة راية جمالها ، وينوط بك أمورها كلها ، ويكلل إليك عقدها وحلها »

استقر رأى المؤيد بعد وصوله إلى الرحبة على استمالة أمراء العرب لضمان نجاح حركة البساسيرى ، فأرسل إلى نور الدولة دبيس بن مزيد صاحب الحلة أن يلحق به فى الرحبة ، واستطاع بعد قدومه إليه أن يقنعه بمعاونة البساسيرى ، كما أن الخليفة الفاطمى رغبة منه فى اكتساب ولاء ابن مزيد وتشجيعه على مؤازرة البساسيرى ، منحه عهداً لقبه فيه « بالأمير سلطان ملوك العرب ، سيف الخلافة ، صفى أمير المؤمنين » ، كما قلده زعامة عرب العراق ، ومنحه ولاية ما يفتح من البلاد شرقى نهر الفرات

سار البساسيرى على رأس جيشه ومعه دبيس بن مزيد ، كما قدمت إليه نجدة من دمشق ، قوامها الكلبيون الذين رفضوا فى بادىء الأمر المسير مع الجيش إلا إذا انفصل العرب عن غيرهم من جند الأكراد

والأتراك؛ لكن المؤيد ما لبث أن حملهم على العدول عن رأيهم بالأموال التي أغدقها عليهم [١].

كان من أثر الامدادات التي وصلت إلى البساسيري أن انتصر هو وأعوانه على جيوش قريش بن بدران صاحب الموصل وقتلمش ابن عم السلطان طغرلبك في موقعة سنجار [٢] سنة ٤٤٨ هـ. وقد لقي قتلمش من أهل سنجار العنت، كما بالغوا في إلحاق الأذى به. أما قريش بن بدران فقد لجأ إلى نور الدولة دبيس بن مزيد، فأعطاه خلعة كانت قد أرسلت إليه من مصر، ثم عاد إلى الموصل وأقام الخطبة للمستنصر بالله الفاطمي [٣].

أيقن المؤيد أن نجاح حركة البساسيري ودخوله بغداد، يتوقف على تحقيق أحد أمرين: إما القضاء على قوة السلاجقة بها أو تشتيت شمل جيوشهم في معارك متفرقة، ومن ثم عمد إلى مراسلة بعض الأمراء الذين كانوا على إتصال بالسلاجقة وحاول أن يستميلهم إلى جانبه؛ كما أرسل كتاباً إلى عميد الملك الكُندري -وزير طغرلبك- قلل فيه من شأن الخليفة العباسي فقال: «وكثر العجب من السيد (عميد الملك الكندري) على ما قرأه من السِّيَر وعرفه من أنباء الأمر أن يكون العباسي (القائم بأمر الله) عنده خليفة الله..؛ ولم تعتقد فرقة من فرق الإسلام أن العباس (ابن عبد المطلب) خليفة أصلا، وسوى هذا فإنه على عدم الخلافة

(١) سيرة المؤيد ص، ١٢٧ — ١٣٠

(٢) تقع بنواحي الجزيرة على مقربة من الموصل

(٣) ابن الأثير، ج ٩، ص ٢١٧ — ٢١٨

عادم لصدق القول وصدق اليمين وحُسن الوفاء . » ، كما أشار فى كتابه إلى أن ابن المسلمة وزير الخليفة القائم بأمر الله هو الذى أغرى السلاجقة بدخول بغداد ، وأن هذا العمل الذى قاموا به لا يعدّ نصراً كبيراً لهم . كما نوه فى خطابه بعلو شأن الخليفة الفاطمى وبسيادته على الأراضى المقدسة ببلاد الحجاز وبما لديه من الأموال والأسلحة والعساكر[1] .

كان المؤيد يرمى من وراء هذه الرسائل التى أنفذها إلى بعض أمراء العرب دعوتهم إلى تأييد الفاطميين ، كما أن رسالته إلى وزير طغرلبك كان الغرض منها صرف السلاجقة عن تأييد العباسيين . غير أن هذه المكاتبات جميعها لم تؤد إلى تحقيق الغاية التى أرسلت من أجلها ، ذلك أن عميد الملك الكندرى كان فى الوقت الذى وصلته رسالة المؤيد يعمل على تفريق شمل أمراء العرب ويغريهم بإسناد بعض الولايات إليهم ، فيعد أحدهم بالموصل ، على حين يمنّى غيره بولاية البصرة وواسط[2] . وقد أدت هذه السياسة التى اتبعها عميد الملك إلى اختلاف كلمة هؤلاء الأمراء وعدولهم عن معاونة البساسيرى ، بل إن بعضهم كنوز الدولة دبيس بن مزيد وقريش بدران بعث الى طغرلبك يستعطفه ، فعفا عنهم ، واضطر البساسيرى الى العودة الى الرحبة وتبعه الأتراك البغداديون وجماعة من بنى عقيل[3] .

ظل المؤيد حريصاً على التودد لأمراء العرب بالعراق رغم ما لاحظه

(١) سيرة المؤيد ، ص ١٥٤ — ١٥٦

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٥٦ — ١٥٧

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢١٩

من ترددهم فى نصرة البساسيرى ؛ فأرسل كتبه إلى كل من نور الدولة دبيس بن مزيد وقريش بن بدران رغبة فى الإبقاء على مودتهم . ثم أزمع الرحيل إلى الرحبة ، ومنها سار إلى حلب حيث التقى بأميرها ثمال بن صالح بن مرداس، ولحق به البساسيرى ، فنزل بموضع يسمى بالس على مقربة من حلب وبصحبته قريش بن بدران ونخبة من وجوه بنى عقيل .

كان نفوذ السلاجقة فى بلاد العراق قد أخذ فى الازدياد منذ دخل طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧ هـ . وعلى الرغم من مغادرته هذه المدينة فى أواخر سنة ٤٤٨ هـ ، فانه لم يلبث أن عاد إليها فى السنة التالية وقابل الخليفة القائم بأمر الله الذى أفاض الخلع عليه وخاطبه بملك المشرق والمغرب ، وطلب من وزيره أن يبلغه هذا القول : « إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك ، حامد لفعلك ، مستأنس لقربك وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده ، ورد عليك مراعاة عباده ، فاتق الله فيما ولاك ، واعرف نعمته عليك فى ذلك ، واجتهد فى نشر العدل وكف الظلم وإصلاح الرعية[(١)] » .

على أن طغرلبك رغم ذلك لم ينعم بالاستقرار فى دولته فخرج عليه أخوه لأبيه ابراهيم ينال الذى كان قد استولى على بلاد الجبل[(٢)] وهمذان ، وامتد سلطانه على ما حولها من البلاد إلى حلوان سنة ٤٣٧ هـ . ثم طلب منه طغرلبك أن يسلمه همذان ، فرفض فى بادىء الأمر ؛ غير أنه ما لبث أن اضطر إلى النزول عنها بعد أن هزم فى القتال الذى دار

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ص ٢٢٠ — ٢٢١

(٢) اسم لبعض بلاد ما وراء طبرستان

بينه وبين أخيه [١]. وظل الخلاف منذ ذلك الوقت قائماً بين طغرلبك وابراهيم ينال الذى بعث رسولا من الموصل إلى حيث يقيم البساسيرى وقريش بن بدران. وكان ظاهر رسالته الترغيب فى الدخول فى طاعته ليقلدهما ولاية البلاد، أما باطنها فتضمن مخاطبة المؤيد ليرسل إليه الخلع والأموال والألقاب والألوية التى يلتمسها من الخليفة الفاطمى، حتى إذا ما تغلب على طغرلبك وخلفه فى الملك جعل الخطبة للفاطميين، بالخلافة والإمامة مقدمة على خطبته. ولما وقف المؤيد على ما تضمنته رسالة ابراهيم ينال. تعهد بأن يجيب طلبه فيما يتعلق بالمال والخلع والألقاب [٢].

لما وثق المؤيد من أن جهوده فى سبيل نشر الدعوة الفاطمية ببلاد العراق قد كللت بالنجاح. رأى أثناء إقامته بحلب أن يعود إلى مصر، ويترك البساسيرى وجنده البغداديين وغيرهم من أعوانه يواجهون السلاجقة والعباسيين؛ غير أنه لم يفصح عن خطته فى العدول من متابعة البساسيرى إلا حين وصله خبر خروج ابراهيم ينال من الموصل وتركه بها حامية صغيرة من جند السلاجقة، فانتهز هذه الفرصة وقال للبساسيرى: «قد آن لك أن ترجع إلى الرحبة وتتدبرها وتستعين على وقتك بارتفاعها، ونحن بعد ذلك نسوق إليك كل سنة مالا كثيراً يكون إضافة إلى ما نستجلبه إلى الرحبة، فتتسع يدك ولا تتناقض حالك»، ثم وجه حديثه إلى قريش بن بدران بقوله: «وأنت ياقريش قد حان

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج ٣ ص ٤٦٢ — ٤٦٣

(٢) سيرة المؤيد: ص ١٧٥ — ١٧٦.

لك أن ترجع إلى بلدك الموصل . . ، والشرذمة التى بها فلا قبل لهم بالثبات فى وجهك ، لا سيما إذا شد منك البساسيرى » . وقد استطاع المؤيد بما عرف عنه من سعة الحيلة أن يقنعهما بوجهة نظره ، ثم مضى فى طريقه إلى مصر ، ورحل البساسيرى وقريش بن بدران من حلب لمواصلة جهودهما فى نشر نفوذ الفاطميين بمدن العراق .

كانت ثورة ابراهيم ينال على أخيه طغرلبك مما مهد السبيل أمام البساسيرى لتحقيق أغراضه . ذلك أن ابراهيم ينال لما غادر الموصل إلى بلاد الجبل سنة ٤٥٠ هـ ، عزا السلطان طغرلبك رحيله إلى خروجه على طاعته ، وبعث إليه رسولا يستدعيه ومعه الخلعة التى خلعها عليه الخليفة العباسى ، فعاد ابراهيم إلى السلطان وهو إذ ذاك ببغداد . ولما أيقن البساسيرى وقريش بن بدران أن القوة التى تركها ابراهيم بالموصل من الضعف بحيث يسهل عليهما التغلب عليها ، زحفا على هذه المدينة وتمكنا من الاستيلاء عليها (٢) .

كان للصعاب التى واجهت السلطان طغرلبك من ناحية البساسيرى أسوأ الأثر فى نفسه ، ففضلا عن الهزيمة التى لحقت جيوشه بسنجار انتزعت منه الموصل . لذلك نراه يتأهب لدرء الأخطار عن البلاد التى تحت سلطانه ، فأنفذ كتبه إلى خراسان وبلاد ما وراء النهر « يستنفر

---

(١) سيرة المؤيد : ص ١٧٦ — ١٧٨

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣ ، ابن خلدون : العبر ، جـ ٣ ، ص ٤٦٣

الناس خفافا وثقالا ، حتى حشد من الحشود الجم الغفير والعدد الكثير وجعل قصده الشام ، ومصر همه ، عالما بأن تلك الجموع التى اجتمعت على قمعه ودفعه بعيد أن تجتمع [1] . . » . وسرعان ماتحقق ظن طغرلبك فيما يتعلق بالموصل ، فقد انسحب منها كل من البساسيرى وقريش ابن بدران : فلما سار إليها لم يجد بها أحداً ، ثم اتجه إلى نصيبين ليتتبع آثارهم ، ويخرجهم من البلاد التى يستولون عليها . وبينما هو فى طريقه فارقه أخوه ابراهيم ينال الذى سار نحو همذان فوصلها فى أواخر شهر رمضان سنة ٤٥٠ هـ .

وقد أشار ابن الأثير [2] إلى العوامل التى دفعت ابراهيم ينال إلى الخروج على أخيه طغرلبك بقوله : « وكان قد قيل إن المصريين كاتبوه . والبساسيرى قد استماله وأطمعه فى السلطنة والبلاد . » . ومن الثابت أن ابراهيم ينال كان على اتصال بداعى الفاطميين المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ، ونستدل على ذلك من قول المؤيد نفسه « وكشف القناع عما كان استقر بينى وبين ابراهيم ينال ، كما أتانى رسوله الصوفى وأنا بحلب [3] » .

أدرك طغرلبك الخطر الذى يهدد سلطانه من جراء خروج أخيه ابراهيم ينال عليه ومن ثم عوّل على السير فى أثره حتى يتسنى له إخضاعه ،

---

(١) سيرة المؤيد . ص ١٧٩

(٢) الكامل فى التاريخ . جـ ٩ ص ٢٢٣

(٣) سيرة المؤيد : ص ١٧٩

ولحق به من كان ببغداد من الأتراك [1]. وقد وصف المؤيد [2] خروج طغرلبك لمحاربة أخيه بقوله: « فاختبط طغرلبك وعسكره، فتفرقوا، وهام طغرلبك على وجهه مقتفياً لأثره حتى غاب حسه ولم يدر أي طريق سلك، وفي أي واد هلك ».

ولم يكن جيش طغرلبك من القوة بحيث يمكنه إحراز النصر على أخيه، بينما اجتمع إلى ابراهيم ينال كثير من الأتراك الذين كانوا ينقمون على طغرلبك وحلف لهم أن لا يصالح أخاه ولا يدخل بهم العراق لكثرة نفقاته، كما أتى إليه بعض أبناء أخيه أرتاش مع كثير من جندهم، فاشتد بهم ساعده وقوى أمره، واضطر طغرلبك إلى التوجه إلى الري حيث استنجد بابن أخيه ألب أرسلان وطلب منه المعونة؛ فأقبل إليه ألب أرسلان من سجستان إلى حدود العراق، وفي ١٩ من جمادى الآخرة سنة ٤٥١ هـ هزم ابراهيم ينال بالقرب من الري وأخذ أسيراً إلى طغرلبك الذي قتله في نفس السنة تخلصاً منه [3].

انتهز البساسيري فرصة انشغال طغرلبك بإخماد حركة أخيه ابراهيم ينال وزحف إلى بغداد على رأس أربعمائة فارس حاملا الرايات المستنصرية، كما سار معه قريش بن بدران في مائتي فارس. وتمكن من الاستيلاء عليها في ٨ ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ دون مقاومة تذكر، فمال

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٢٢٣

(٢) سيرة المؤيد، ص ١٨٠

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٢٢٥، ابن خلدون: العبر، ج ٣، ص ٤٦٣

إليه أهل الكرخ لكونهم من الشيعة ورحبوا بقدومه . وفى يوم الجمعة الثالث عشر من شهر ذى القعدة أقام البساسيرى الخطبة بجامع المنصور للمستنصر بالله الفاطمى ، كما أمر بأن يؤذن بحى على خير العمل ، ثم خطب للخليفة الفاطمى على جميع منابر بغداد ، وضرب السكة بإسمه ، وبعث إليه يبشره بفتح بغداد وإقامة الدعوة له [1] . وقد وصف المؤيد دخول البساسيرى هذه المدينة بقوله [2] : « ولما رأى البساسيرى أن الله سبحانه قد قطع (بطغرلبك) الأسباب . . . علم أن بغداد فريسة لمن طلب وقبضة لمن رغب ، فزحف بالرايات المستنصرية ، وصادف فيها أرضاً تعج إلى الله تعالى من ظلم التركانية وقلوباً ملئت غيظاً من العباسى وابن المسلمة الذى كان سبب استدعائهم وتسلطهم على حرم الناس وأموالهم ودمائهم ؛ فكان قدوم البساسيرى عليهم كنزول الرحمة من سمائهم ، فشدوا حيازيمهم معه لإقامة الدعوة المستنصرية على بغداد . »

ضعفت سلطة الخليفة القائم بأمر الله العباسى بدخول البساسيرى بغداد ، وانصرف عن تأييده كثير من الناس مما اضطره إلى طلب الأمان من قريش بن بدران ، فأمنه ، كما أعطى أماناً لرئيس الرؤساء ؛ فاستاء من ذلك البساسيرى وأرسل إلى قريش بن بدران يقول : أتخالف ما استقر بيننا ؟ —وكانا قد تحالفا ألا ينفرد أحدهما عن الآخر بشىء، ويكون العراق بينهما نصفين— ، فقال قريش : ماعدلت عما استقر بيننا ، عدوك

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ص ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٦ ، ١١

(٢) سيرة المؤيد : ص ١٨٠

ابن المسلمة (يعنى رئيس الرؤساء) نخذه ، وأنا آخذ الخليفة ، فرضى البساسيرى بذلك [١] .

عوّل البساسيرى بعد أن استقر له الأمر فى بغداد على التخلص من رئيس الرؤساء أبى القاسم بن المسلمة . فلما قدم إليه قال له : « مرحباً بمدمر الدولة ومهلك الأمم ، ومخرب البلاد ، ومبيد العباد ؛ فقال له ابن المسلمة : العفو عند المقدرة . فقال : قد قدرت فما عفوت ، وأنت تاجر صاحب طيلسان . ولم تبق على الحريم والأموال والأطفال ، فكيف أعفو عنك وأنا صاحب سيف ، وقد أخذت أموالى وعاقبت أصحابى ودرست دورى وسببتنى وأبعدتنى » . كذلك أظهر العامة نقمتهم على ابن المسلمة حين قدم لمقابلة البساسيرى وهمّوا بالاعتداء عليه ؛ غير أن البساسيرى حال بينه وبينهم [illegible] أمر بقتله [٢] .

لم تطل إقامة الخليفة القائم بأمر [illegible] ببغداد بعد أن تم للبساسيرى الاستيلاء عليها ؛ فبعث به قريش بن بدران مع ابن عمه الأمير محيي الدين مهارش بن المجلى العقيلى إلى حديثه [٣] عانة ، فأنزله بها مع أهله وحريمه وحاشيته [٤] . وكان البساسيرى قد أرغمه قبل مغادرته بغداد على كتابة عهد ، اعترف فيه بأنه لا حق لبنى العباس ولا له فى الخلافة مع وجود

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٩

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٢٠ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ٩ — ١١

(٣) تقع بالقرب من الأنبار

(٤) ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ٢٦٦

بنى فاطمة الزهراء عليها السلام، ثم بعث بهذا العهد إلى القاهرة حيث ظل محفوظاً بقصر الخلافة حتى استولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على محتوياته سنة ٥٦٧ هـ، فأنفذه إلى الخليفة العباسى المستضىء بالله فى بغداد مع بعض التحف والهدايا على أثر وفاة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بمصر [١].

كذلك أرسل البساسيرى إلى المستنصر بالله ثوب الخليفة القائم العباسى وعمامته وشباكه [٢] الذى كان يجلس فيه، وغير ذلك من الأموال والتحف وقد أثار وصولها وقيام الدعوة الفاطمية بمساجد بغداد حماسا عظيما بين أهالى مدينة القاهرة الذين أقاموا الزينات ابتهاجا بهذا النصر [٣]، كما سر الخليفة المستنصر وأنفق كثيراً من الأموال لإعداد القصر الذى بناه العزيز ويعرف باسم القصر الغربى الصغير ليكون مقراً لإقامة الخليفة القائم بأمر الله [٤] إذا ما تحقق أمله فى القبض عليه. وكان من بين مظاهر الاحتفال باستيلاء البساسيرى

(١) المقريزى: خطط، ج ١، ص ٤٣٩

(٢) كان هذا الشباك كشرفة يجلس فيها الخليفة ويعتمد بيديه على حافته، وقد بقى محفوظا عند الخليفة الفاطمى حتى نقل إلى دار الوزارة التى عمرها الأفضل ابن بدر الجمالى، فصار يجلس فيه الوزير ويتكىء عليه، وما زال بها إلى أن عمّر الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الخانقاه الركنية، فأخذ من أنقاض دار الوزارة شباك الخليفة العباسى وجعله فى القبة.

(راجع ما ورد فى المقريزى: خطط، ج ١، ص ٤٣٩)

(٣) المقريزى: خطط، ج ٢، ص ١٢٥

(٤) المقريزى: خطط، ج ١، ص ٤٥٧

على بغداد وإقامة الخطبة باسم المستنصر على منابرها أن وقفت إحدى المغنيات تحت قصر الخليفة تنشد هذين البيتين :

يا بنى العباس صُدّوا ملك الأمر مَعَدُّ
ملككم كان معارا والعوارى تُسترَدُّ

فأعجب المستنصر بغنائها وأقطعها أرضاً لا تزال تعرف إلى اليوم فى مدينة القاهرة بإسم أرض الطبالة [1] .

على الرغم من المجهودات التى بذلها البساسيرى فى سبيل نشر نفوذ الخلافة الفاطمية ببغداد ، فانه لم يتلق من الخليفة المستنصر بالله مايشجعه على مواصلة القيام ببسط سلطانه على بلاد العراق ، ويرجع السبب فى ذلك إلى حقد الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المغربى [2] عليه . وكان هذا الرجل قد رحل إلى بغداد وانضم إلى البساسيرى ، وما لبث بعد

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٢

(٢) نشأ أبو الفرج محمد بن جعفر بن محمد بن على المغربى فى مصر عهد الحاكم بأمر الله ، ثم سار إلى العراق بعد أن نكل هذا الخليفة ببعض أفراد أسرته . وما زالت تتنقل به الأحوال حتى عاد إلى مصر فى عهد المستنصر واصطنعه وزيره أبو محمد الحسن اليازورى . فولاه ديوان الجيش . وأصبح منذ ذلك الوقت موضع رعاية أم المستنصر . ولما آلت الوزارة إلى أبى الفرج عبد الله بن محمد البابلى بعد وفاة اليازورى ، قبض عليه . فلم يزل معتقلا حتى أسند إليه منصب الوزارة فى الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة ٤٥٠ هـ ولقب بالوزير الأجل الكامل الأوحد صفى أمير المؤمنين وخالصته ؛ وظل يتقلد هذا المنصب حتى عزل فى اليوم التاسع من شهر رمضان سنة ٤٥٢ هـ ثم ولى ديوان الإنشاء . وتوفى سنة ٤٧٨ هـ .

(المقريزى : خطط ، ج ٢ ، ص ١٥٨)

ذلك أن انقلب معادياً له وفر إلى مصر حيث أخذ يحذر الخليفة من عاقبة أطماعه [١] ، فتخوف منه المستنصر وصار لا يعنى بإجابة طلباته ، غير أن البساسيرى رغم ذلك حرص على إخلاصه للخليفة الفاطمى ، فأخذ يتابع إغاراته فى بلاد العراق حتى استولى على واسط والبصرة ، ثم أمر بإقامة الخطبة فيهما للمستنصر بالله [٢] . وقد علق أبو المحاسن [٣] على موقف المستنصر من البساسيرى بعد دخوله بغداد بقوله : « ولولا تخوف المستنصر من البساسيرى وترك تحريضه على ما هو بصدده ، لكانت دعوته تتم بالعراق زمناً طويلا » .

لما تم لطغرلبك القضاء على حركة أخيه ابراهيم ينال ، أرسل إلى البساسيرى وقريش بن بدران يطلب منهما إعادة الخليفة القائم بأمر الله إلى بغداد ويقول إنه سيقنع بذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة ، ولا يدخل العراق [٤] . كذلك أنفذ طغرلبك الإمام أبا بكر أحمد بن محمد بن أيوب المعروف بابن فورك إلى قريش بن بدران يشكره على حسن معاملته للخليفة ومحافظته على حياته ، ويخبره بأنه عهد إلى ابن فورك بمصاحبة القائم بأمر الله فى عودته إلى بغداد .

لم يجب البساسيرى طغرلبك إلى طلبه ، كما أن قريش بن بدران سعى لدى الأمير محيي الدين مهارش صاحب الحديثة ليحول دون عودة

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١١

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٢٢٥

(٣) النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١١

(٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٢ ، ص ١٧٨

الخليفة العباسى إلى بغداد . وكان يرى أن تحقيق هذه الغاية قد يؤدى إلى عدول السلاجقة عن السير إلى العراق . ويتبين لنا ذلك من رسالته إلى الأمير مهارش التى جاء فيها : « فارحل أنت وأهلك إلى البرية ، فإنهم إذا علموا أن الخليفة عندنا فى البرية لم يقصدوا العراق ونحكم عليهم بما نريد » . لكن الأمير مهارش رأى ألا يذعن لرغبة قريش ابن بدران ، فبعث إليه يقول : « كان بينى وبين البساسيرى عهود ومواثيق لا أخلص منها » ، ثم أزمع المسير إلى بغداد بصحبة الخليفة فى ١١ ذى القعدة سنة ٤٥١ هـ .

كان طغرلبك إذ ذاك فى طريقه إلى بغداد ، فلما اقترب منها أدرك البساسيرى أنه لا قبل له بمقاومته لأنه لم يتلق من مصر مساعدات أخرى تمكنه من الوقوف فى وجه السلاجقة ، ومن ثم خرج من بغداد مع جنده وسار قاصداً الكوفة فى اليوم السادس من ذى القعدة سنة ٤٥١ هـ [١] .

رأى طغرلبك أن يبالغ فى الاحتفال بعودة القائم بأمر الله إلى بغداد ليظهر له مدى إخلاصه له ، فأرسل إليه وهو فى طريقه إلى هذه المدينة وزيره عميد الملك الكندرى والأمراء والحجاب ليقوموا على خدمته . ولم يكتف بذلك ، بل خرج لاستقباله عند وصوله إلى النهروان وقبل الأرض بين يديه ، وأبدى له اغتباطه بعودته ، كما اعتذر له عن تأخره فى نجدته بانشغاله فى إخماد فتنة أخيه ابراهيم ينال ، وقال له إنه عزم على المضى

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٢ ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

خلف البساسيرى ، والمسير إلى الشام ، والوقوف من الخليفة الفاطمى بمصر موقفا حازما يتلاءم مع أفعاله (١) .

خلت مدينة بغداد من أعيانها فى الوقت الذى عاد فيه الخليفة القائم بأمر الله إلى مقر خلافته حتى لم يكن فى استقباله منهم غير القاضى أبى عبد الله الدامغانى وثلاثة من الشهود ، وأظهر طغرلبك حرصه على الاحتفاء بقدومه — وكان قد سبقه فى المسير إلى هذه المدينة — ، ولم يكد يستقر الأمر للخليفة العباسى فى بغداد حتى عهد السلطان إلى خمارتكين الطغرائى بالمسير على رأس ألفى فارس إلى الكوفة حيث يقيم البساسيرى ، كما ضم اليه طائفة من الجند بقيادة ابن منيع الخفاجى . وسار بنفسه فى أثرهم . ولم تزل قواته تتعقب البساسيرى حتى أوقعت به الهزيمة عند الكوفة ، وقضت عليه فى ذى الحجة سنة ٤٥١ هـ (٢) . وبذلك تيسر لطغرلبك القضاء على حركة البساسيرى وإعادة الخطبة فى بغداد للخليفة القائم بأمر الله العباسى .

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٢٢٨ ، ابن خلدون : العبر ، جـ ٣ ، ص ٤٦٥

٣ — زوال النفوذ الفاطمى ببلاد العراق

بعد دخول السلاجقة بغداد

ازداد نفوذ السلاجقة فى بلاد العراق منذ منتصف القرن الخامس الهجرى ، فاستأثر طغرلبك بالسلطة دون القائم بأمر الله بعد أن أنقذه من تحكم البساسيرى وأعاده إلى مقر خلافته ؛ وسار على هذه السياسة من جاء بعده من سلاطين السلاجقة حتى أصبحت حالة الخلفاء العباسيين لا تختلف اختلافا كبيراً عما كانت عليه فى أيام بنى بويه ؛ ذلك أنه بينما كان أمراء بنى بويه يقيمون فى بغداد ويستبدون بالسلطة فان السلاجقة استأثروا بالنفوذ فى بلاد العراق ، أضف إلى ذلك أن الخلفاء العباسيين فى العصر السلجوقى كانوا يعيشون من إقطاعات مقررة يستولون على دخلها[1] . ولم يبق لهم من سلطانهم القديم سوى ذكر اسمهم فى الخطبة ونقشه على السكة .

على أن معاملة السلاجقة للخلفاء العباسيين كانت أفضل بكثير من معاملة بنى بويه لهم ؛ ويرجع السبب فى ذلك إلى اعتناق السلاجقة المذهب السنى الذى يعد الخليفة العباسى رئيسه الأعلى . وقد ذكر أرنولد[2] أن السلاجقة كانوا لا يحترمون الخليفة لمركزه السياسى ، بل لأنه خليفة الله فى الأرض .

---

(١) ابن الأثير : تاريخ دول الاتابكة ، ٩١ - ٩٢

(٢) The Caliphate p. 80

ضعف شأن الخلفاء العباسيين فى العصر السلجوقى بالعراق ؛ فقد عمل السلاجقة على الحد من نفوذهم ، بل تعسف بعضهم فى معاملتهم ، من ذلك ما قام به السلطان ملكشاه ، إذ صمم على طرد الخليفة المقتدى من بغداد سنة ٤٨٥ ه لأنه رأى فيه ميلا إلى التدخل فى الحكم [١] ، كما أخذ السلاجقة من الخليفة المسترشد بردة الرسول صلى الله عليه وسلم التى كان الخلفاء يرتدونها عند توليتهم الخلافة أو عند حضورهم الحفلات الدينية [٢] .

كان السلاجقة يدركون الخطر الذى يتهددهم من وراء انتشار النفوذ الفاطمى فى بلاد الشرق الإسلامى . ومن ثم وجهوا سياستهم بعد أن قبضوا على زمام الأمور فى بغداد سنة ٤٥١ ه إلى مناهضة هذا النفوذ . وقد صادفهم كثير من النجاح فى تحقيق هذه السياسة ، فأقام أمير مكة محمد بن جعفر الدعوة لكل من الخليفة القائم بأمر الله والسلطان ألب أرسلان سنة ٤٦٤ ه [٣] ، وفى السنة التالية تمكن ألب أرسلان من بسط سلطان السلاجقة على حلب ، كما أصبحت دمشق سنة ٤٦٨ ه تحت سيادتهم ، وأبطل فيها الآذان بحى على خير العمل [٤] وهو يعد من مظاهر المذهب الشيعى التى كانت سائدة إذ ذاك فى الأراضى الخاضعة لنفوذ الفاطميين .

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ١٨١ — ١٨٢

Arnold. The caliphate. p. 80 (٢)

(٣) راجع كتاب «النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب» للمؤلف ص ٢١ — ٢٢

(٤) السيوطى تاريخ الخلفاء ، ١٨٠

كذلك حرص السلاجقة على تعقب دعاة الاسماعيلية الذين قاموا بنشر الدعوة للفاطميين فى بلاد الفرس والعراق ، كما تعصبوا للمذهب السنى ، وبلغ من تعصبهم لهذا المذهب أن أقصوا غير السنيين عن وظائف الحكومة ، وأحسن مثل لذلك ما قام به نظام الملك وزير السلطان ملكشاه الذى فصل الحسن بن الصباح من ديوان السلاجقة بسبب اعتناقه المذهب الاسماعيلى واتصاله بدعاة الفاطميين [١] .

وعلى الرغم من اهتمام السلاجقة بالقضاء على دعاة الاسماعيلية ، فان كثيراً من هؤلاء الدعاة تجلى نشاطهم منذ أواخر القرن الخامس الهجرى فى بلاد الفرس ، ويرجع السبب فى ذلك إلى بعد هذه البلاد عن بغداد مركز الخلافة العباسية ، كما أن السلطان ألب أرسلان (٤٥٤ — ٤٦٥ﻫ) بإلغائه نظام البريد جعل من المتعذر على السلاجقة استقصاء أخبار دولتهم مما ساعد الاسماعيلية على إحكام أمورهم فى شرق الدولة الإسلامية . وقد وضح البندارى [٢] ذلك بقوله « وكان منهم رجل من أهل الرى ... ، وكانت صناعته الكتابة ، فخفى أمره ، حتى ظهر ، وقام من الفتنة كل قيامة ، واستولى فى مدة قريبة على حصون وقلاع منيعة ، وبدأ من القتل والفتك بأمور شنيعة ، وخفيت عن الناس أحوالهم ، ودامت حتى استتبت على استتار ، بسبب أنه لم يكن للدولة أصحاب أخبار » .

لم تظفر الدعوة الاسماعيلية بكثير من النجاح فى بلاد العراق

(١) طه شرف : كتاب « دولة النزارية » ص ٤١ — ٤٢

(٢) تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٦٢ — ٦٣

فى أوائل العهد السلجوقى لأن هذه البلاد كانت مقراً للخلافة العباسية السنية التى كان من أهم أركان سياستها مناهضة أتباع المذهب الاسماعيلى، كما أن السلاجقة من ناحية أخرى عمدوا إلى التنكيل بدعاة هذا المذهب، وفضلا عن ذلك فإن الخلافة الفاطمية فى مصر لم تعمل منذ منتصف القرن الخامس الهجرى على مواصلة جهودها لنشر دعوتها فى بلاد العراق كما كانت الحال عند قيام البساسيرى بحركته، بل اقتصر اهتمامها على الاحتفاظ بما تبقى لها من نفوذ فى الجزيرة العربية، وتأييد دعاة الاسماعيلية فى بلاد الفرس واليمن الذين استطاعوا باتخاذهم هذه البلاد مركزاً لهم أن يكونوا بعيدين عن تنكيل العباسيين والسلاجقة بهم.

وليس من شك فى أن اضطراب الحالة الداخلية فى مصر فى أواخر عهد المستنصر بالله الفاطمى، كان له أثر كبير فى صرف الحكومة الفاطمية عن الاهتمام بنشر دعوتها فى بلاد العراق، فقد ظهر التنافس بين العناصر الأجنبية وبخاصة الأتراك والسودان، كما خرج ناصر الدولة الحسين بن حمدان التغلبى الذى كان يتولى قيادة الأتراك على طاعة الخليفة الفاطمى، وبعث سنة ٤٦٢ هـ إلى ألب أرسلان سلطان السلاجقة بالعراق رسولا من قبله، يسأله أن يرسل إليه بنجدة ليقيم الدعوة العباسية على أن تؤول إليه السيادة على مصر، فرحب ألب أرسلان بذلك، غير أنه ما لبث أن شغل بمحاربة الروم عن المسير إلى دمشق ثم مصر [(١)]

لما بلغ المستنصر أن ناصر الدولة ، أرسل إلى ألب أرسلان يستدعيه إلى الديار المصرية ، جهز إليه عساكر كثيرة من الأتراك لمحاربته بإقليم البحيرة فأوقع بهم ناصر الدولة الهزيمة وغنم منهم مغانم كثيرة وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسى فى الاسكندرية ودمياط ، وجميع أنحاء الوجه البحرى ، وحال دون وصول الأقوات إلى القاهرة ومصر [١] ، وكان مما زاد الحالة سوءاً تلك المجاعة التى بدأت بانخفاض النيل سنة ٤٥٧ ه واستمرت سبع سنين ، فقلت الأقوات واشتد الغلاء . وقد عانى الأغنياء وكبار رجال الدولة من هذه المجاعة مثل ماعاناه الفقراء تماماً ؛ واضطر بعض أصحاب النفوذ والأعيان إلى مغادرة مصر والرحيل إلى بلاد الشام والعراق [٢] .

ظل ناصر الدولة بن حمدان يبذل أقصى جهده لإضعاف شأن الخليفة المستنصر بالله الفاطمى والاستئثار بالحكم ؛ وتجلى خروجه على طاعته سنة ٤٦٤ ه حيث عاود القيام بحذف اسمه من الخطبة فى الوجه البحرى ، كما بعث إلى القائم بأمر الله العباسى ببغداد يلتمس الخلع ، ثم قدم إلى الفسطاط على رأس جيش كبير من العرب والبربر وتولى الحكم فيها ، وأنفذ إلى المستنصر رسولا يطلب منه الأموال . ولم يكتف بذلك بل سار إلى القاهرة وبالغ فى إهانة الخليفة الفاطمى وأظهر ميله إلى مذهب أهل السنة . واضطر كثير من أقارب المستنصر

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٢٠

(٢) المرجع نفسه : ص ٢٠ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٥ — ١٦

إلى النزوح إلى المغرب والعراق . على أن ناصر الدولة لم تستقر له الأمور طويلا بالقاهرة ، فسرعان ماثار به الأتراك الذين كانوا إذ ذاك من أهم عناصر الجيش الفاطمي ونجحوا فى القضاء عليه والتخلص من جميع أفراد أسرته [١] .

لم تكن الظروف مهيأة فى أواخر القرن الخامس الهجرى لتستعيد الدعوة الفاطمية مكانتها فى بلاد العراق فقد ضعف أمرها وأصبحت مهددة بالزوال من جراء ذلك النزاع الذى نشأ حول الخلافة الفاطمية بعد وفاة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ والذى ترتب عليه انقسام الاسماعيلية فى مصر وبلاد الشرق الاسلامى إلى طائفتين، عرفت الأولى بالنزارية ، أما الثانية فتعرف بالمستعلية ، وقد انحاز دعاة الاسماعيلية فى بلاد اليمن إلى هذه الفرقة التى اتخذت مصر مقراً لها وظلوا على ولائهم للخليفة المستعلى [٢] ، بينما انحاز غيرهم من الدعاة فى بلاد الفرس بزعامة الحسن بن الصباح إلى نزار وادعوا أن المستعلى اغتصب منه الخلافة والإمامة [٣] .

وقد بذل الحسن بن الصباح جهده للرد على حجج طائفة المستعلية، فزود مكاتب قلعة «ألَمُوت [٤]» وغيرها من قلاع الاسماعيلية بالمؤلفات

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٢١ — ٢٢

(٢) راجع كتاب « النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب » للمؤلف ص ٨٤—٨٦

(٣) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٦٥ ، طه شرف : دولة النزارية ، ص ٦٦

(٤) تمكن الحسن بن الصباح سنة ٤٨٣ هـ من الاستيلاء على هذه القلعة التى تقع فى الشمال الغربى من فارس واتخذها مركزاً لحكومة الاسماعيلية . يقول ابن ميسر =

الكثيرة التى تثبت صحة إمامة نزار بن المستنصر وبطلان إمامة المستعلى، كما عهدت الحكومة الفاطمية إلى كتابها ودعاتها فى مصر بالرد على النزارية وتفنيد حججهم التى تؤيد أحقية نزار بن المستنصر فى الإمامة [1].

كانت الدعوة الفاطمية فى حاجة إلى توحيد جهود دعاتها حتى يتيسر لهم الابقاء عليها، لكن انقسام الاسماعيلية إلى فرق وأحزاب كان له أثر كبير فى صرفهم عن تحقيق هذه الغاية؛ فقد شغلت الحكومة الفاطمية بالقضاء على القلاقل التى أثارها أتباع النزارية فى مصر بإيعاز من رؤساء دعوتهم فى فارس الذين كانوا يمدونهم بالمال. وقد تجلى خطر النزارية على الخلافة الفاطمية فى مصر فى عهد الآمر، فأبوا الاعتراف بإمامته وإمامة أبيه المستعلى، هذا فضلا عن اعتقادهم أنهما وليا الخلافة دون حق. وكان ذلك مما حمل الخليفة الآمر الفاطمى سنة ٥١٦ هـ على أن يعهد إلى وزيره أبى عبد الله المأمون بن البطائحى بكتابة رسالة لزعيمهم الحسن بن الصباح يدحض فيه آراء النزارية فى الإمامة ويدعوه إلى الحق، كما بعث فى طلب «الفقهاء من الاسماعيلية والامامية للاجتماع فى قصره، وقال لهم وزيره المأمون البطائحى: ما لكم من الحجة فى الرد على هؤلاء الخارجين على الاسماعيلية، فقال كل منهم:

= (تاريخ مصر ص ٢٧): «وكانت دعوة الاسماعيلية ببلاد (الديلم) والجبل من قديم، فأقام الحسن بينهم يبث الدعوة، حتى شاعت، فأخذ يجمع الأسلحة والعدد سراً، وأوعد أصحابه فى رجب (سنة ٤٨٣ هـ) فى ليلة منها . . . . كان السلطان حينئذ ملكشاه بن ألب أرسلان، فأخذ قلعة ألموت».

(١) طه شرف: دولة النزارية، ص ٢١٢

لم يكن لنزار إمامة ومن اعتقد هذا فقد خرج عن المذهب وضل ووجب قتله [١] » .

على أن هذه الرسالة لم يتح لها أن تصل إلى يد الحسن بن الصباح لعدول رسل الخليفة الآمر عن مواصلة السفر إليه بسبب الأنباء التي وصلت إلى مصر عن ازدياد نفوذ طائفة النزارية ببلاد المشرق واتصالها بأتباعها فى مصر لتدبير مؤامرة لقتل الخليفة الفاطمى ووزيره المأمون البطائحى [٢] . لذلك لا نعجب إذا رأينا الحكومة الفاطمية تتبع حركاتهم فى جميع البلاد الخاضعة لنفوذها وتعمل على التخلص ممن تحوم الشبهات حول انحيازه إليهم . وبلغ من اهتمام المأمون البطائحى بالبحث عن النزارية وتقصى أخبارهم أن اتخذ جواسيس لاقتفاء آثار أتباع هذه الطائفة بمصر والقاهرة [٣] .

وقد وضح ابن ميسر [٤] ما قام به هذا الوزير من مجهود فى سبيل إبعاد خطر النزارية عن الدولة الفاطمية ، فقال : « إنه أركب فى يوم من الأيام جماعة من العسكر وفرّقهم وأمر بمسك من عيّنه ، فمسك منهم جماعة كثيرة ، منهم رجل كان يقرىء أولاد الخليفة الآمر ، ومسك معهم المال الذى سيره ابن صباح برسم نفقة مصر ، فأخذه ، وكانت هذه الفعلة من المأمون من عجائب الحذق ، وبث مع ذلك الجواسيس فى

---

(١) المقريزى : خطط ، ج ١ ، ص ٤٠٧

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص ٦٥ ، ٦٨

(٣) المرجع نفسه : ص ٦٥

(٤) تاريخ مصر ، ص ٦٦

أقطار الأرض ، وكان الباطنى إذا خرج من « ألموت » لا تزال أخباره تصل إلى المأمون متعاقبة حتى يصل « بلبيس » ، فيمسك بها ، ويحمل إليه فيقتله . » . وعلى الرغم من اتخاذ الحكومة الفاطمية الحيطة للقضاء على مؤامرة النزارية لاغتيال الآمر ، فإن فريقاً منهم كمنوا له بجزيرة الروضة ، ثم انقضوا عليه وقتلوه على مقربة من المقياس فى ذى القعدة سنة ٥٢٤هـ[(١)].

أصبحت الدعوة الفاطمية منذ أواخر القرن الخامس الهجرى تواجه كثيراً من الصعاب سواء فى مصر أو بلاد الشرق الإسلامى مما جعلها مهددة بالزوال ؛ فقد أدى عدم استقرار الأمور فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى — الذى تجلى فيه إزدياد نفوذ الوزراء واستئثارهم بالسلطة دون الخلفاء — إلى انصراف الحكومة الفاطمية عن بذل جهودها لنشر دعوتها ، فأتيحت بذلك الفرصة أمام الخلفاء العباسيين — رغم ما كانوا يعانونه من ازدياد سلطان السلاجقة — للقضاء على ما تبقى للفاطميين من نفوذ وقد حالفهم النجاح فى بلاد العراق وغيرها من بلاد الشرق الإسلامى حيث أضحى النفوذ الفاطمى فى اليمن والحجاز روحيا فقط ، وصار لا يتمثل إلا فى السكة والخطبة .

كذلك كان لوقوف بعض وزراء هذا العصر فى وجه رجال الدعوة فى مصر حتى لا يتيسر لهم الوصول إلى الزعامة أو السلطان ،

---

(١) المقريزى : خطط ، جـ ٢ ، ص ١٨٢ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص ١٨٥

وعدم حرص رجال الحكومة الفاطمية على الاحتفاظ بمظاهر المذهب الإسماعيلي أثره البالغ فيما أصاب الدعوة الفاطمية في بلاد الشرق الاسلامي من وهن وانحلال ، ولا غرو فقد أصبح التحمس لهذا المذهب ونصرته أو إضعافه ومناهضته تابعا لرغبة الوزراء وميولهم . وليس أدل على ذلك من أن الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ظل مشايعاً للمذهب الفاطمي حتى توفى المستعلي وخلفه الآمر سنة ٤٩٥ هـ ، فأخذ يميل ميل السنيين [1] . وقد تجلت هذه الظاهرة في إلغائه الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد ابنته فاطمة ، وعلى بن أبي طالب ، ومولد الخليفة القائم بالأمر . ولا يخفى علينا أن عمله هذا يؤدي إلى إضعاف نفوذ الفاطميين الذين كانوا يحرصون على الاحتفال بهذه الأعياد لتأييد انتسابهم إلى على بن أبي طالب وزوجته فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام [2] ، ولما استأثر ابنه الوزير أبو على أحمد بن الأفضل بالنفوذ سنة ٥٢٤ هـ ومنع الحافظ من التصرف في شئون الدولة وسجنه في خزانة ، أمر بحذف اسم اسماعيل بن جعفر الصادق من الخطبة وأحل محله اسم محمد المنتظر الامام الثاني عشر عند طائفة الامامية ، كما أمر بعدم إضافة عبارة حيّ على خير العمل إلى الأذان وزاد في إضعاف المذهب الاسماعيلي بأن عيّن سنة ٥٢٥ هـ أربعة من

(١) ذكر ابن الأثير (ج ١٠ ، ص ٢٠٩) أن الاسماعيلية كانوا يكرهون الأفضل بن بدر الجمالي لأسباب منها : تضييقه على إمامهم ، وتركه ما يجب عندهم سلوكه معهم . ومنها تركه معارضة أهل السنة في اعتقادهم والنهي عن معارضتهم ، وإذنه للناس في إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها » .

(٢) حسن إبراهيم الفاطميون في مصر ، ص ٢٧٩

القضاة اثنين من الشيعة ، أحدهما من طائفة الامامية الاثنى عشرية والآخر من الاسماعيلية ، واثنين من السنيين أحدهما شافعى والآخر مالكى ، وأعطى لكل منهم السلطة فى اصدار أحكامه وفق مذهبه [1] . وقد أثارت هذه السياسة التى اتبعها الوزير أبو على أحمد بن الأفضل غضب الاسماعيلية ، وكذلك الأمراء وغيرهم ، فدبروا مؤامرة لاغتياله [2] .

وهكذا مهدت الأحوال الخارجية والحوادث الداخلية الطريق للقضاء على الدعوة الفاطمية ، فاضطهد السلاجقة فى بلاد العراق كثيراً من الشيعيين ، كما وقفوا من دعاة الاسماعيلية الذين استفحل خطرهم فى بلاد الدولة العباسية موقفا ينطوى على الحزم والشدة ، فبذلوا جهدهم لاخماد حركاتهم . ولم يكن الخلفاء العباسيون أقل تحمسا منهم فى مقاومة نفوذهم إذ كانوا يرون فى طائفة الاسماعيلية خطراً يهدد الدولة الاسلامية . وفضلا عن ذلك فان نهوض هؤلاء الخلفاء لاستعادة سلطانهم القديم [3] .

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٧٥ ، المقريزى : خطط : ج ٢ ص ٢٧١ ، ٣٤٣

(٢) حسن إبراهيم : الفاطميون فى مصر ص ٢٣٠

(٣) حاول بعض الخلفاء العباسيين أن يستعيدوا سلطتهم التى استأثر بها السلاجقة وسار الخليفة المسترشد بخطى واسعة فى هذا السبيل ؛ فخرج فى سنة ٥٢٠ هـ على السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى وهزم قواته . وكاد يستقل بالأمر لولا المساعدة التى قدمها حاكم البصرة للسلطان . (ابن الأثير : ج ١٠ ص ٢٧٠-٢٧٢ ولما توفى السلطان محمود سنة ٥٢٥ هـ ، عمل الخليفة المسترشد على استعادة سلطته فجمع الجيوش لاسترداد ما كان للعباسيين من نفوذ ، واتخذ من الخلاف الذى قام بين أفراد البيت السلجوقى فرصة ليستأثر بأمور العراق ، وبلغ من جرأته أنه أمر بعدم إقامة الخطبة للسلطان مسعود سنة ٥٢٩ هـ مما أدى إلى قيام الحرب بينهما ، فدارت معركة بين الجيشين العباسى والسلجوقى قرب همذان ، انتهى الأمر فيها =

وسعيهم لاحياء مجد الخلافة ونجاحهم فى تحقيق هذه الأمنية . ساعد إلى حد كبير على تقوية الشعور الاسلامى ضد الطوائف الشيعية .

ولم تكن حالة الدعوة الاسماعيلية فى مصر مقر الدولة الفاطمية خيراً منها فى بلاد المشرق . فقد تجلى ضعف المذهب الاسماعيلى فى

= بهزيمة الخليفة وأسره ، ثم قتله نفر من الاسماعيلية بإيعاز من السلطان مسعود سنة ٥٢٩ هـ .

لما آلت الخلافة إلى الراشد بعد وفاة أبيه المسترشد ، تعهد للسلطان مسعود فى كتاب شهد فيه بعض القضاة أنه إذا حاول محاربته أو جرد السيف على أصحابه حق عليه الخلع من الخلافة ؛ غير أن الخليفة ما لبث أن أعتذر عن عدم استطاعته دفع هذه الأموال لرسول السلطان ، ثم ألب عليه حكام دولته . فقام الجميع ينادون بمحاربة مسعود وخلعه . لكن السلطان مسعود ، سرعان ما حاصر بغداد . واضطر الخليفة إلى الخروج منها هاربا إلى الموصل سنة ٥٣٠ هـ . فدعا السلطان مسعود — بعد دخوله بغداد — العلماء والفقهاء والقضاة والأعيان وحملهم على إقرار محضر بخلع الخليفة الراشد وولى مكانه عمه المقتفى لأمر الله .

لما توفى السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ ، لم يخلفه فى السلطنة من يستطيع الاحتفاظ بقوة السلاجقه فى العراق ، بل ضعف أمرهم منذ ذلك الوقت ، وأخذ الخليفة المقتفى ووزيره ابن هبيرة يعملان على إحياء مجد الخلافة واستعادة نفوذها ، وليس أدل على مبلغ ضعف السلاجقة من أن سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملكشاه لم يقدم على دخول بغداد إلا بعد موافقة الخليفة المقتفى ، كما حلف لهذا الخليفة فى اجتماع عقد بداره على النصح والموافقة ولزوم الطاعة ، وأنه لا يتعرض إلى العراق بحال . ولم يبق له من مظاهر السلطة سوى ذكر اسمه فى الخطبة .

وهكذا فقد سليمان شاه الحقوق التى كان يتمتع بها أسلافه ، وأخذ النفوذ السلجوقى فى العراق تبعاً لذلك فى الاضمحلال حتى زال نهائيا سنة ٥٩٠ هـ .

(راجع : ابن الأثير ؛ جـ ١١ ص ٣٤ ، ٧٧ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء . ص ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢) .

العصر الفاطمى الأخير وانصراف بعض الوزراء عن تأييد هذا المذهب ، بل تعصب بعضهم كعلى بن السلار — وزير الخليفة الظافر — لمذهب السنة ، فأنشأ فى سنة ٥٤٦ هـ بالاسكندرية مدرسة للشافعية ، أسند إدارتها إلى الحافظ السلفى الفقيه الشافعى [1]. وبذلك هيأ السبيل لرجوع المذهب السنى إلى مصر . وقد أدى تعصبه لهذا المذهب ورغبته فى إحلاله بمصر محل المذهب الاسماعيلى إلى حقد الخليفة ورجال دولته عليه . فقتل بايعاز منه [2] . وما زال المذهب الاسماعيلى آخذاً فى الاضمحلال من الديار المصرية حتى تقلد صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة للخليفة العاضد الفاطمى سنة ٥٦٤ هـ ، فوجه اهتمامه — بعد بعد إضعافه سلطة هذا الخليفة — إلى القضاء على المذهب الشيعى فى مصر ، فأنشأ مدرسة لتدريس المذهب الشافعى ، وأخرى لتدريس المذهب المالكى ، وعزل قضاة الشيعة ، وعين صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعى قاضيا للقضاة فى جميع أنحاء الديار المصرية [1] ، فاستعاد بذلك المذهب السنى قوته ، وأخذ المذهب الشيعى فى الاختفاء تدريجيا حتى لم يبق له أنصار فى مصر .

ولا شك أن هذه العوامل التى تقدم ذكرها وإن كانت قد عجلت بزوال النفوذ الفاطمى ببلاد المشرق ، فانها من ناحية أخرى أفادت الخلافة العباسية ، فقد ساعدتها على الاحتفاظ بسيادتها على البلاد الاسلامية .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ١ ص ٤٦٧ — ٤٦٨

(٢) حسن إبراهيم : الفاطميون فى مصر ، ص ٢٩٦ .

(٣) المقريزى : خطط ، ج ٢ ، ٣٤٤ .

المصادر والفهارس الأبجدية

مصادر الكتاب

١ — ابن الأثير : (ت ٦٣٠ هـ ، ١٢٣٨ م) على بن أحمد بن أبى الكرم
(ا) الكامل فى التاريخ (١٢ جزءاً) .

٢ — (ب) تاريخ دول الأتابكة .

٣ — أرنولد : سير توماس . و Arnold : Sir Thomas. W
The Caliphate (Oxford, 1924)

٤ — البغدادى : (ت ٤٢٩ هـ ، ١٠٣٧م) أبو منصور عبد القاهر بن طاهر
الفرق بين الفرق (القاهره ١٣٢٨ هـ ، ١٩١٠ م)

٥ — البكرى : (ت ٤٨٧ هـ ، ١٠٩٤ م) أبو عبيد الله عبدالله بن عبدالعزيز البكرى .
المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب .

٦ — البندارى : الفتح بن على بن محمد .
تاريخ دولة آل سلجوق (القاهرة ١٣١٨ هـ ، ١٩٠٠ م)

٧ — حتى : فيليب — Hitti : Philip
History of the Arabs (ا)

٨ — (ب) History of Syria

٩ — حسن ابراهيم حسن (الدكتور) .
(ا) الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص
(القاهرة ١٩٣٢ م)

١٠- (ب) تاريخ الإسلام السياسى (الجزء الثالث — القاهرة ١٩٤٦ م)

١١— حسن ابراهيم حسن وطه شرف .
(ا) عبيد الله المهدى إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدوله الفاطمية فى بلاد المغرب . (القاهرة ١٩٤٧ م)

١٢ — (ب) المعز لدين الله إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية فى مصر (القاهرة ١٩٤٨ م)

١٣ — حسن حبشى :

الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٤٧ م)

١٤ — الخطيب البغدادى : (ت ٤٦٣ هـ) الحافظ أبو بكر أحمد بن على

تاريخ بغداد أو مدينة السلام (١٤ جزءاً)

(القاهرة ١٣٤٩ هـ ، ١٩٣١ م)

١٥ — ابن خلدون : (٨٠٨ هـ ، ١٤٠٥ — ١٤٠٦ م) عبد الرحمن بن محمد

العبر وديوان المبتدأ والخبر — (٧ أجزاء) (بولاق ١٢٨٤ هـ)

١٦ — ابن خلكان : (ت ٦٨١ هـ ، ١٢٧١ م) شمس الدين أبو العباس أحمد ابن ابراهيم بن أبى بكر الشافعى

وفيات الأعيان . جزءان (بولاق ١٢٨٣ هـ)

١٧ — دى غويه : De Goeje : M C.

Mémoire Sur Les Carmathes duBahrain et Les Fatimides (Leyden 1886)

١٨ — ابن سعيد : (ت ٦٧٣ هـ ، ١٢٧٥ م) على بن موسى المغربى .

المُغرب فى حُلىُ المغرب والمُشرِق فى حُلىُ المشرق .

١٩ — سيدة اسماعيل كاشف (الدكتورة)

مصر فى عصر الاخشيديين (القاهرة ١٩٥٠ م)

٢٠ — السيوطى : (ت ٩١١ هـ ، ١٥٠٥ م) عبدالرحمن بن أبى بكر جلال الدين .

تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة .

٢١ — طه شرف (الدكتور)

دولة النزارية أجداد آغا خان (القاهرة ١٣٦٩ هـ ، ١٩٥٠ م)

٢٢ — عبد العزيز الدورى :

دراسات فى العصور العباسية المتأخرة بغداد ١٩٤٥ م)

٢٣ ــ عبد القادر الأنصارى : (الشيخ زين الدين عبد القادر بن البدرى محمد بن ابراهيم الأنصارى) (من علماء القرن العاشر الهجرى)
درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة (مخطوط بدار الكتب المصرية).

٢٤ ــ ابن العديم الحلبى : (ت ٦٦٠ هـ ، ١٢٦١ ــ ١٢٦٢ م) كمال الدين أبو حفص أو أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله .
زبدة الحلب فى تاريخ حلب .

٢٥ ــ ابن العميد : (ت ٦٧٢ هـ ، ١٢٧٣ م) الشيخ المكين جرجس بن العميد . تاريخ المسلمين (ليدن ١٦٢٥ م) .

٢٦ ــ أبو الفدا : (ت ٧٣٢ هـ ، ١٣٣١ م) اسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه
المختصر فى أخبار البشر (٤ أجزاء)

٢٧ ــ فييت : جاسيون فييت ــ Wiet, G.
(ا) Histoirs de la Nation Egyptienne Vol. IV.
(L'Egypte Arabe)
(ب) Précis de L'Histoire d'Egypte T. II.
(L'Egypte Musulmane)

٢٩ ــ ابن القلانسى : (ت ٥٥٥ هـ ، ١١٦٠ م) أبو يعلى حمزة
ذيل تاريخ دمشق

٣٠ ــ القلقشندى : (ت ٨٢١ هـ ، ١٤١٨ م) أبو العباس أحمد
صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء (١٤ جزءا)

٣١ ــ الكندى . (ت ٣٥٠ هـ ، ٩٦١ م) أبو عمر محمد بن يوسف
كتاب الولاة وكتاب القضاة .

٣٢ ــ لامانس Lammens : Pére Henri
La Syrie, Précis Historique, Tome I.

٣٣ ــ لينبول : ستانلى . Lane-Poole : Stanley
(ا) A History of Egypt in the Middle Ages.

٣٤ – (ب) The Muhammadan Dynasties
٣٥ – أبو المحاسن : (ت ٨٧٤ هـ ، ١٤٦٩ م) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (نشر دار الكتب المصرية)
٣٦ – محمد جمال الدين سرور (الدكتور) النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب
(الطبعة الثانية – القاهرة ١٩٥٧ م)
٣٧ – مسكويه : (ت ٤٢١ هـ ، ١٠٣٠ م) أبو على أحمد بن محمد
كتاب تجارب الأمم .
٣٨ – المقريزى : (ت ٨٤٥ هـ ، ١٤٤١ م) تقى الدين أحمد بن على
(ا) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (بولاق ١٢٧٠ هـ)
٣٩ – (ب) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا
(نشر الدكتور جمال الدين الشيال . القاهرة ١٩٤٨ م)
٤٠ – ابن ميسر : (ت ٦٧٧ هـ ، ١٢٧٨ م) محمد بن على بن يوسف بن جلب
تاريخ مصر (طبعة هنرى ماسيه Henri Massé . القاهرة ١٩١٩ م)
٤١ – النويرى : (ت ٧٣٢ هـ ، ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب
نهاية الأرب فى فنون الأدب (صور شمسية بدار الكتب المصرية) .
٤٢ – هبة الله الشيرازى : (ت ٤٧٠ هـ ، ١٠٧٧ م) المؤيد فى الدين هبة الله .
سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة
(نشر الدكتور محمد كامل حسين ، القاهرة ١٩٤٩) .
٤٣ – ابن الوردى : (ت ٧٥٠ هـ ، ١٣٤٩ م) تتمة المختصر فى أخبار البشر .
(القاهرة ١٢٨٥ هـ ، ١٨٦٨ م) .
٤٤ – ياقوت : (ت ٦٢٦ هـ ، ١٢٢٩ م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى .
معجم البلدان ١٠ أجزاء (القاهرة ١٩٠٦ م) .
٤٥ – يحيى بن سعيد الأنطاكى : (ت ٤٥٨ هـ ، ١٠٦٦ م) .
صلة كتاب سعيد بن بطريق المسمى « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق »
جزءان (بيروت ١٩٠٩ م)

فهرس أسماء الأعلام

(تنبيه) اعتمدنا فى ترتيب الأسماء على أول الاسم دون المبالاة بأداة التعريف، وبلفظى : الأب والابن . مثال ذلك : (ابن حمدان) فقد ذكرناه فى حرف الحاء. و (ابن سعيد) تجده فى حرف السين . و (أبو القاسم) فى حرف القاف . وكل اسم ورد بعده رقم يليه الحرف (ه) فهو من أسماء الأعلام الواردة فى الهوامش .

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

فهرس الأمم والقبائل والعشائر والطوائف

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

فهرس البلاد والمدن والمواضع والأنهار